MAJDI DAIBES

مجدي دعيبس

أُلْفة الوحْدة

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى رفاقي.. الذين عرفتهم يوم كانت للبنفسج

ألوان مضحكة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يظلّ الإنسان إنسانًا حتى يعقره كلب مسعور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الولد الأعرج

كان الأولاد يلعبون بصخب وفرح في السّاحة الترابيّة غير المستوية، التي تعاونوا على إزالة الحجارة منها وتمهيد أرضيتها، ليتمكنوا من الجري حفاة خلف كرة محشوة بخرق بالية. يبتهج من يسجّل هدفًا على الرغم من كل الضربات المؤلمة التي يتلقّاها قبل أن يسدّد الكرة بعزيمة النفس الأخير. يراقبون قرص الشمس وهو ينحدر بسرعة خلف التّلال الغربيّة. يتمنون لو أنّها تبطئ قليلا حتّى يتسنّى لهم اللعب لفترة أطول، وعندما لا تفعل يسبّونها ويلعنونها ويعودون إلى بيوتهم متثاقلين حزينين.

كان يجلس على حافة السّاحة ويتابعهم وهم يلعبون بشغفهم المعهود، يتحمّس عندما يسجّل أحدهم هدفًا مباغتًا ويلوّح بيديه الاثنتين ثم يعود ليجلس مكانه. لم يسمحوا له باللعب معهم بسبب العرجة التي تعيقه عن النّطّ والقفز بخفّة كما يفعل باقي الأولاد. جرّبوه غير مرّة، لكنّه خذلهم وتسبّب في خسارة فريقه، فقرّروا أنّه لا يصلح للعب، وجلس في المكان الذي أصبح مكانه المفضّل لاحقًا، وفي أحيان كثيرة كان ينسى نفسه هناك وتغفو عيناه على خيالات أغصان شجرة الكينا التي تهتزّ كلما هبّ نسيم المساء، فيدخل في روعه أنّ الأولاد ما زالوا يلعبون.

وصلت حماسة اللعب إلى أقصاها عندما تهادت الكرة إليه في مكانه المعتاد، أخذها بيديه وركض بها بعيدًا عنهم، كان يجري بخفّة لافتة، ويقفز مثل غزال مذعور. عندما خرجوا من دهشتهم لحقوا به حتّى يستردّوا الكرة منه. صاح أحدهم: «خلف السنسلة.. إنّه يختبئ هناك». ركضوا إلى حيث أشار الولد. قفزوا عن حجارة السنسلة المتهدّمة، لكنّه لم يكن هناك. بحثوا عنه في الجوار ولم يجدوه: «أين اختفى هذا العفريت الذي حلّ في جسد الولد الأعرج؟». عادوا إلى بيوتهم غاضبين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستائين، وحالما أخبروا أهاليهم بما حدث، نظر الأهالي في وجوه بعضهم بعضًا، ثم نفخوا في فتيلة السراج وناموا.

عندما جاء موسم الحصاد بعد سنوات عجاف تحوّلت السّاحة إلى بيدر لأنّ بيدر القرية لم يتّسع للجميع هذا العام فاضطرّوا للتّعدّي على ملعب الأولاد الذين جلسوا في المكان الذي اعتاد الولد الأعرج الجلوس فيه. راقبوا قرص الشمس الذي كان يتصرّف بغرابة شديدة؛ كلما هبط باتجاه الغرب عاد أدراجه إلى حيث كان يقف قبل قليل كأنّه يستثقل الرحيل. جاءت صيحة مباغتة من رجل ذهب إلى السنسلة لقضاء حاجته بعيدًا عن الأعين. ركضوا إلى حيث يقف حاملين الشواعيب والمذاري وظنّوا أنّه شاهد ما أفزعه مثل ثعبان أو حنش بين الحجارة السوداء. وقفوا هناك مبهوتين متأملين هيكلا عظميًا لولد صغير فيما بدا لهم، يحتضن كرة مهترئة تظهر من تهتّكاتها خرق وأسمال فتّتتها الشمس. دقّقوا في ساقيه العظميّتين فعرفوا أنّه الولد الأعرج الذي اختفى قبل سنوات لأنّ إحداها كانت أطول من الأخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البركة الرّومانيّة

ظلّ الحلم عينه يراوده حتّى تحوّل إلى كابوس مزعج. يرى نفسه يقود سيارة بسرعة غريبة عن عاداته في السياقة، وعندما يصبح بمحاذاة البركة الرومانية في الجزء التاريخي من المدينة، تنزلق عجلات السيّارة وتضرب السّور الحديديّ الذي يحيط بالبركة وتسقط المركبة وسائقها في الماء. ما يدهشه كل مرة ليس وصول سيارة الدّفاع المدنيّ المتأخر، ولا عدم وجود المعدات اللازمة للغطس، ولا تجمهر الناس الفضوليين لرؤية ما يحدث، مما يعيق عمل فريق الإنقاذ وإنما الصّورة التي يكون عليها عند إخراجه من الماء. ما يحدث ليس له علاقة بالواقع بل هو مربك ومحيّر. عندما برز الغطّاس من الماء كان يسحب جثّة لجندي رومانيّ بالزّيّ المعروف لجنود الإمبراطوريّة في ذلك الوقت. كان الدم يسيل من جنبه المطعون بضربة نافذة. نظروا باستغراب واستغراق إلى خوذته ودرعه وصندله وغمد سيفه القصير. كانت عادة الجنود ارتداء ملابس قصيرة الأكمام، لأنّ الفكرة الشائعة في ذلك الوقت تقول إنّ الأكمام الطويلة للنساء فقط.

في الليلة اللاحقة كانت الجثة التي سحبها الغطّاس تعود لفتى هزيل مهشّم الجمجمة. بينما هم محملقون به، فتح فمه فخرجتْ سحليّة خضراء كانت متمركزة في حلق الفتى. حالما ابتعدتْ السحليّة تغيّر لون وجه الفتى وبدأ يستعيد حواسه وعافيته. التأم الجرح الغائر في جمجمته بسحر ساحر. حرّك رأسه قليلا ثم فتح عينيه بشكل مباغت فأجفلهم وتفرّقوا من جوله.

في الليلة اللاحقة سحب الغطّاس جثة امرأة يافعة مبقورة البطن. كان طرف الحبل السريّ متدليًا ويرشح دمًا. انتبهوا لأحد ثدييها الذي انكشف عليهم لمزق في ثوبها عند الصدر. كان ينزّ حليبًا بغزارة لافتة. بلّل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثوبها وجسدها ثم راح يسيل على الأسفلت. خافوا وابتعدوا عنها حتى لا يصلهم الحليب. اتّسعت دائرة المحيطين بها حتى ظهرت المرأة مثل قارب متهتّك الشراع يطفو على سطح بركة صغيرة من الحليب.

استظرف ما يحدث بعد أنّ أرهقه وكدّر نومه لأيام وأسابيع؛ في كل مرّة يعاوده الحلم تظهر جثّة جديدة، ولم يقتصر الأمر على البشر بل ظهرت جثّة أسد مرعب يطبق فكيّه على غزال صغير، وجثة بقرة نافقة من الهزال، وجثة مسجون مقيّد بالحديد، وجثة أمير يضع تاجًا على رأسه، وجثة تنين صغير. مضت أشهر وبدأ الملل يتسرب إلى نفسه. تساءل: «كيف عجز الغطّاس عن العثور على جثتي؟». بعد أيام عدة وصل الغطّاس إلى جثّته. عندما عرفوه ارتسمت على وجوههم علامات الاشمئزاز والقرف. بصقوا عليه وانفضّوا من حوله بسرعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمثال من الجصّ

هناك خطأ فادح في آلية عمل الذكريات، بدا الأمر على قدر مخيف من الجنون المطبق. الذكريات والأفكار تنثال بسلاسة ويسر، وهذا أمر اعتيادي لا يثير الاستهجان والقلق، لكن الجزء المفزع في هذا الشأن أن الهواجس والتداعيات لا تخصّ صاحبها بل تعود لأناس آخرين قد يعرفهم وقد لا يعرفهم. «يا إلهي! ماذا يحدث معي؟ هذه ليست أفكاري ولا مخاوفي. هناك تداخل في الخطوط. أشعر بغرابة قاسية»، هتف الموظف في شركة اتصالات معروفة وهو يقطع القاعة الواسعة للوصول إلى الطاولة التي ركنوا عليها ماكينة لصنع القهوة الأمريكيّة وسط همهمة الموظفين وضحكاتهم، فجأة انقطعت الأصوات المتداخلة وساد الصمت. وجد نفسه محاصرًا بنظرات زملائه الذين خشوا أو خجلوا من أمر ما عندما دقّقوا في الأصوات التي تعالت في رؤوسهم. غادروا القاعة بسرعة وعادوا إلى مكاتبهم.

كاد الموظف يجنّ لهول ما يتوارد إلى ذهنه من أفكار وأصوات غريبة. كان الأمر مشوّشًا في البداية ثم راحت الأصوات تتّضح شيئًا فشيئًا. ها هو يسمع صوت أفكار زميلته أميرة في قسم المبيعات. احمرّ وجهه وشعر بخجل شديد وهي تلعن زوجها الذي ترك عمله وقعد في البيت مما اضطرّها للعمل في وظيفة لا تملك المؤهلات اللازمة لها، واستعاضت عنها بالجلوس على حجر المدير الذي يتحسّس جسدها من تحت القميص ثم يمدّ أصابعه الغليظة إلى مناطقها الحسّاسة. يدفع لها بخمسين دينارًا لتشتري «جينزًا» ممزقًا عند الفخذين، وخمسين أخرى لتشتري «فيزون» أصغر من المقاس الذي تلبسه بنمرة أو نمرتين حتى يلتصق بجلدها وتظهر تفاصيل هندسة المؤخرة والأرداف. كانت تكره نفسها بعد كل مرّة إلى الحدّ الذي ترغب فيه بالموت أو قتل المدير أو قتل زوجها. تهدأ بعد ساعة أو ساعتين عندما تفكّر بأطفالها وأقساط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدارس، وأجرة المنزل ونظرات صاحب البناية الذي تتراقص عيناه وحاجباه عندما يراها. يتمتم بكلام ملغز يحتمل أكثر من معنى. كانت تتحمل أكثر من هذا بكثير وتصمت.

في المرّة الأخيرة التي جلبها المدير إلى مكتبه، طلب كعادته من السكرتيرة عدم تحويل أي مكالمات لانشغاله باجتماع مهم مع قسم المبيعات. بعد أن أغلقتْ الباب، أشار إليها لتجلس على ركبتيه. كانت ترتدي «الفيزون» الجديد. تحسّس فخذيها ثم ضحك وهو يقول: «أصبحتْ عضلاتك قوية مثل عضلات لاعبات الجمباز». لم تردّ على ملاحظته. شعر ببعض الألم عندما لامس كوعها صدره فابتسم مجدّدًا. حاول أن يثني جذعها لكنها كانت متصلبّة وقاسية جدًّا. عدّل من وضعية جلوسه ليستطلع وجهها ويقرص شفتيها الناعمتين. ذُعر عندما رأى النظرة الجامِدة التي احتلّتْ عينيها، فدفعها لتسقط على رخام الأرضيّة الباردة وتتفتتْ كما يتفتّتُ تمثال رخيص من الجصّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صانع التوابيت

حزنت على فراق زوجها على الرغم من لؤمه ونكده وفضّلت رفقته على رفقة الوحدة. من سيسأل عنها من بعده؟ «لا ولد ولا تلد». حتى الجارات اللواتي كنّ يزرنها كل حين انقطعت علاقتها بهن لغلظة زوجها وحدّة طباعه. على الرغم من قصرها الفادح كان يصرّ على تجريب التابوت الجديد عليها، تتمدّد داخله فيغافلها ويثبّت الغطاء بحجّة تجريبه، فيصيبها الذعر الشديد ويرتفع صوتها وتدفع غطاء التابوت بيديها الصغيرتين. يضحك باستمتاع وهو يرفعه عنها ويقول: «نفذتِ منها هذه المرّة، لكن (مش كل مرّة بتسلم الجرّة). متى يأتي اليوم الذي أدقّ فيه مسامير تابوتك؟». تخرج من النعش بسرعة، ثم ترفع طرف ثوبها عند الرقبة وتتفل في صدرها: «فال الله ولا فالك يا رجل».

مضت الأيام وهو يتكسّب من هذا العمل حتّى تعسّرت حاله عندما كسد الموت بين النّاس ولم يعد هناك ما يدرّ عليه ثمن طحين القمح ليخبز ويأكل وزوجته. كان يستغرق في التفكير ثم ينهض ضاربًا كفًّا بكف: «ما العمل؟ لا أحد يموت في هذه القرية المشؤومة. قالوا إنّ أبا سالم اشتدّ عليه المرض وقد يموت، وفي اليوم التالي قام مثل الجنيّ يحرث ويزرع ويقلع. ما العمل؟». كانت زوجته تراقب حركات وجهه ويديه عندما تنبّه مثل غافل لسعته جمرة فرّت من كانون الحطب، ثم انفرجت تعابير وجهه وكادت ابتسامة تتوهج على شفتيه قبل أن يطفئها بقسوة كعادته، إذ لمح زوجته بطرف عينه تترصّد حركاته. همّت بسؤاله لكنّها تراجعت لأنها تعلم علم اليقين أنّه لن يفصح.

في الأسبوع اللاحق كثر اللطم والنحيب في القرية، مات أبو سالم وتبعه أبو خالد وأبو هاني وأم هاني وغيرهم من الأهالي القاطنين في الحي الغربي من القرية. انتعشت أحوال صانع التوابيت وصارت أعماله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رائجة، لكنّه ما لبث أن مات هو نفسه في الأسبوع التالي. كانت زوجته تجلس في دارها تفكر بما يتهامس به أهل القرية عن زوجها الذي -كما قالوا- أفسد ماء البئر الغربية وليست الشرقية القريبة من داره ليسمّم الناس وخاصة المرضى منهم، فتزدهر أعماله. «إذا كان ما يقولونه صحيحًا، فكيف لم يأخذ حذره من الماء المسموم؟ أعرف زوجي جيّدًا. لن يفوته أمر كهذا».

ظلّ يأتيها في الأحلام كل ليلة ويشتكي من مسمار بارز في تابوته يشكّه كلما تقلّب من جنب إلى آخر. ألحّ عليها حتى تحفر قبره وتنزع المسمار اللعين كي يرتاح في رقدته الأخيرة. انتظرت حتى هبط الليل وذهبت إلى المقبرة حاملة فانوسًا ومعولا. حفرت القبر كما طلب حتى كشفت التابوت ونزعت غطاءه لتعرف أي مسمار أقضّ مضجع زوجها. تفاجأت عندما وجدته جالسًا بانتظارها، ابتسم لها ثم غافلها ودفعها لترقد في التابوت بدلا منه. تضرّعت إليه حتى يترك الفانوس لها فهي تخاف الظلمة، لكنّه رفض بشدة. دقّ المسامير بقوة وأهال التراب عليها وغادر دون أن يلتفت وراءه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرآة غريبة

منذ أن اشترت تلك المرآة الصغيرة وحالها تغيّرت، بل انقلبت رأسًا على عقب. كانت تجلس معه في الصباح في السّاحة المبلّطة أمام «الفيلا»، يشربان القهوة بهدوء بفضل السور العالي الذي يحجب الضوضاء الخافتة القادمة من الشوارع القريبة. كانا يمارسان رياضة المشي بعد القهوة ويستمتعان بالأشجار التي تظلّل الشوارع، وزقزقة العصافير التي تنزل إلى الرصيف من دون خوف لتلتقط ما تأكله من فتات الخبز وغيره.

لكنّ تلك المرآة الصغيرة ذات المقبض النحاسي أيقظت فيها وساوس كثيرة كانت مرتاحة منها لسنوات طويلة. تقول وهي تدقّق في انعكاس وجهها في المرآة: «انظر! هذه لم تكن موجودة البارحة». ينظر إلى حيث تشير بسبّابتها اليمنى، يزمّ شفتيه ولا يعلّق. عندما تكرّر الأمر قال: «هذه تجاعيد بسيطة لا تؤثر على صفاء وجهك». نظرتْ إليه لتتبيّن إنْ كان يعني ما قاله أم لا. تنهدتْ: «لطالما كنتُ موضع حسد شقيقاتي وصديقاتي لخلو وجهي من التجاعيد، كيف يحدث هذا بين ليلة وضحاها؟». لـمّا زاد نكدها وتذمرها عن الحدّ قال: «استخدمي «البوتكس» إن شئتِ!». نظرتْ إليه بطرف عينها: «فكّرتُ بالأمر لكنّ شقيقاتي سيلاحظن ذلك ويسخرن مني بعد أن كنت أمانع هذا الأمر لسنوات متفاخرة بنقاء وجهي».

اشتاق الرجل لتناول قهوته في الصباح بهدوء وسكينة كما كان يفعل قبل أن يحلّ هذا الأمر الغريب. فكّر بطريقة للخروج من هذا الوضع، ولم يهتدِ تفكيره سوى لضرورة التّخلّص من المرآة لعلّها تنسى وتعود لحياتها السابقة. في اليوم التالي أنكر معرفته بمكان المرآة عندما سألته عنها، مع أنّه أعطاها للمرأة التي تأتي كل أسبوع لتنظيف «الفيلا». فرحتْ بها لأنّ تصميمها الغريب يوحي بأنها تعود لعصور غابرة وسحيقة. راحتْ تتأمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجهها في المساء وهي تتابع المسلسل مع زوجها بعد أن وضعت الأطفال في الفراش، تكدّرت وصارت تتبرّم بالتجاعيد التي علت وجهها فجأة من دون سابق إنذار، وأخذت تلحّ على زوجها ليوافق على ضرورة معالجة التّجاعيد «بالبوتكس». رفض لأنّه لا يملك ما يكفي من المال، لكنها لم تستسلم حتى كان يوم عاد فيه مهدود الحيل من العمل الشّاق في محل كراج السيّارات الذي يملكه، فضربها ضربًا مبرحًا وأخذ المرآة وأعطاها للأجير الذي يعمل لديه. ابتهجت زوجة الأجير التي ما زالت عروسًا بالمرآة الجميلة، لكنّها بعد أيام قليلة صارت تتذمّر من التّجاعيد. ظنّ في البداية أنّها تمازحه فهي ما تزال صبيّة مليحة الوجه، لكن سرعان ما تحوّل الأمر إلى نكد وقرف، فضرب عروسه وأعادها إلى دار أهلها، وأخذ المرآة وباعها لصديقه الذي يملك محلا لبيع «الأنتيكة» وسط البلد.

هتفت الزوجة وهي تستطلع التّحف في محل «الأنتيكة» الذي تتردّد عليه كل حين: «انظر! تشبه المرآة التي فقدتُها قبل أسابيع». تفحّصتْها بشغف واضح، وتوجّهتْ إلى صندوق الدّفع بخطى رشيقة مهملة توسّلات زوجها بعدم شرائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشهد مخيف

كان مشهدًا عصيًا على النسيان. وقفوا مبهوتين وهم يتابعون ما يحدث في الشارع المجاور لمدرسة البنات. ثمة حركة سيّارت نشطة والأهالي يجلبون بناتهم قبل توجههم إلى العمل. أبواق غاضبة وإشارات بالأيدي تدلّ على السخط وعدم الرضا، خاصة عندما يكون هناك إطالة غير مبرّرة لتنزيل بنت بمريول أخضر قصير جدًا ترتدي تحته بنطال جينز ضيّقًا. لا أحد يستطيع أن يجزم من أين ظهر ذلك الكلب ذو العيون المحمرّة وهو يشتدّ في مطاردة إحدى البنات التي تسكن في الجوار، وتقطع المسافة مشيًا على الأقدام في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها. تخلّصت من حقيبتها عندما شعرت بها تعيق حركتها. من حسن حظها أنّها كانت تنتعل حذاء خفيفًا مناسبًا للجري السريع. أصبح الموقف أكثر رعبًا عندما اقترب الكلب منها. كان مصمّمًا على عقرها، بدا ذلك واضحًا للجميع الذين شلّتهم المفاجأة للإتيان بأيّ ردّ فعل لمساعدة البنت المسكينة التي أصبحت في مدى أنياب الكلب المسعور كما وصفه أحد أصحاب المحلات في الجهة الأخرى للشارع. في اللحظة التي كاد فيها أن يطبق فكّيه على الربلة اليمنى لساق البنت، قفزت بخفّة عجيبة إلى داخل الحاوية التي كان في نيّتها الاحتماء خلفها. اصطدم رأس الكلب بالحاوية التي لم يتوقع وجودها في هذا المكان. كان الاصطدام قويًا بحيث سمع الواقفون صوتًا مجفلا جعلهم يلمسون جباههم براحة اليد. حاول الكلب النهوض لكنّه ترنّح وسقط بعد خطوتين. أقعى على الأرض حتى يستعيد توازنه فغافله أحد العاملين في الورشة القريبة بضربة قوية على رأسه بخشبة مسحوجة تستخدم في البناء كان في طرفها البعيد مسمار طويل. انتفض الكلب عندما شعر بالمسمار يخترق جمجمته، لكنّه سرعان ما همد بلا حراك. عندما أخرجوا البنت من الحاوية كانت صفراء مثل بتلات زهرة عبّاد الشمس. حمدت المديرة الله على أنّ الكلب لم يعقر البنت،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإلا لتأخرت ترقيتها الوشيكة في الوزارة. قدمت شكوى للبلدية لمكافحة الكلاب الضّالة في محيط المدرسة ورفعت نسخة من الشكوى إلى مكتب الوزير.

بعد أربعين يومًا من تلك الحادثة حضرت البنت إلى المدرسة كالعادة. بدأت تظهر عليها أعراض غريبة منذ الصباح؛ كانت تهمّر مثل الكلاب، ومال لون عينيها إلى احمرار غريب، وسال لعابها بطريقة مقرفة. ضحكت البنات في البداية ظنًّا منهنّ أنّها تمازحهنّ، ثم خفن منها عندما بدأت بالنباح تمامًا كما تنبح الكلاب. ارتفع الهرج في السّاحة، وعندما اقترب معلم الفيزياء ليستطلع الأمر عضّته في يده لأنّها تكره الفيزياء ونيوتن وتفاحته العَفِنة، ثمّ عضّت الآذنة لأنّها كانت تبيع البنات سجائر بروائح غريبة تسبّب الدوخة والانسطال، ثمّ عضّت البنت الوقحة التي تحسّست مؤخرتها في الصيف الماضي، ثم عضّت معلمة اللغة العربية لأنّ كان وأخواتها يرفعن وينصبن كما يحلو لهن، بينما يحرّم على البنات رفع صوتهن أو نظرهن. وعندما وصلت إلى المديرة لم تكتفِ بعضّها بل نهشت مؤخرتها بغلّ لأسباب كثيرة أهمّها رائحة فمها الكريهة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فانتازيا

Telegram:@mbooks90

يقضي ساعات في مرسمه وهو يرسم لوحة لزوجته الجميلة. يعرف أنّ أحدًا لن يشتريها لكنّه يصرّ عليها فقط؛ ليرى ذلك التعبير على وجه زوجته التي تضع يدها على صدرها مبهوتة من الصورة التي تظهر عليها في اللوحة؛ مرّة يرسمها بعين واحدة مثل الوحوش في أساطير اليونان، ومرّة بثلاثة أثداء أو ثلاثة أذرع أو صلعاء أو في إحدى عينيها عور. تصيح بحدّة: «ارسم لوحات يشتريها الناس يا رجل، نحن بحاجة للنقود. الثلاجة فارغة وسيفصلون الكهرباء عن المنزل إن لم ندفع الفاتورة. توقّف عن هذه الحماقات واستثمز وقتك وألوانك في شيء مفيد. ارسم وردة جوريّة حمراء أو حمامة بيضاء أو مزهريّة أو فتاة صغيرة تبتسم بسن مكسورة أو.. ارسم ما يرسمه الآخرون حتى نشتري الخبز». يطيل النظر إليها ثم يُخرج من جيبه دينارًا يحتفظ به ليردّ عليها كلما تكرّر الموقف: «خذي! هذا دينار لشراء الخبز. أرأيتِ انحلّت المشكلة»، ثم تأخذه موجة ضحك عارمة وهو يستطلع الاستنكار والقلق في عينيها العسليّتين.

الشيء الوحيد الذي يملكه في هذه الدنيا هو المنزل الذي ورثه عن أبيه، منزل قديم ورطب لكنّه واسع وغرفه كبيرة. أمامه ساحة مبلّطة وفي الخلف حديقة تنتشر فيها أشجار الأسكدنيا، ويحيط به سور عال لكنّه متصدّع في غير موضع. عندما فكّر بمرسم يضع فيه لوحاته وأدواته لم يجد مشكلة. فصل الغرفتين الغربيّتن عن باقي المنزل وسدّ بابيهما بالطوب، واستحدث لهما بابًا خارجيًا للدخول والخروج. يقول ممازحًا زوجته وربّما يعني ما يقول: «على الأقل ليس هناك من يدقّ بابك نهاية كلّ شهر ليطالبك بأجرة المنزل». تنظر إليه وتقول بسخرية: «هذا ما ينقصني».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يجلس بهدوء في مرسمه عندما خطر على باله الفنان الأمريكي من أصل فرنسي مارسيل دوشان الذي رسم الموناليزا بشارب، وقرّر أن يفعل الأمر عينه مع زوجته. تراقصت عيناه طربًا وهو يتخيّل زوجته بتلك النظرة التي تفترس وجهها. لا يعرف لماذا استغرق رسمها وقتًا أطول من المعتاد، لكنّها كانت لوحة جميلة في نهاية المطاف كما قدّر. انزعجت الزوجة كعادتها، لكنّ هذا الانزعاج تبخّر عندما تمكن من بيعها بمبلغ لم يخطر على باله عن طريق صديق له يعمل كسمسار فنّي في مجال بيع اللوحات والمنحوتات. عندما رسم زوجته في لوحة أخرى بلحية خفيفة، تمكّن السمسار من بيعها أيضًا بمبلغ أعلى من السابقة. فرحت الزوجة كثيرًا ودفعته للمضي في هذا الاتجاه، فرسمها بشعر أسود قصير، وفي أخرى بساقين مكشوفتين وقد غطّاهما شعر كثيف، وفي أخرى بحذاء طويل قذر وساعدين مفتولين.

في الصباح أفاق مبكرًا على غير عادته لأنه حلم بلوحة جديدة. أسند ظهره إلى الحائط، وراح يفكّر بالألوان والضوء والظلال والزوايا، ثم خطر على باله خاطر غريب؛ كيف للفنان أن يرسم رائحة القهوة الطازجة في صباح بارد. حانت منه التفاتة إلى حيث تنام زوجته إلى جواره، فصعق عندما رأى شابًا بشاربين منمّقين ولحية خفيفة وشعر أسود قصير وساقين بشعر كثيف وحذاء طويل قذر وساعدين مفتولين ينام في مكانها.

تضحية

كانت تراقب شجرة الجوز التي زرعها زوجها في حديقة المنزل قبل خمس سنوات. انزعجت عندما علمت بنيّته لزراعتها في ذلك الوقت. همست في أذنه: «يُقال إنّه عندما يصبح جذع شجرة الجوز بحجم عنق صاحبها يموت». نظر إليها باستهزاء مزعج: «خرافات فارغة». لم تقتنع برأيه وظلّت متوجسة من الشجرة التي سرعان ما كبرت وأثمرت. كانت تتسلل إلى الحديقة حاملة الشريط المتري الذي تستخدمه في الخياطة لتقيس قطر الشجرة. يتصاعد خوفها كلما ازداد قطرها سنتيمترًا واحدًا. ألحّت على زوجها حتى يتخلص منها قبل فوات الأوان، لكنّه رفض بشدة.

أصبحت الكوابيس تطاردها كل ليلة. ترى زوجها يغرق في النهر، وهي تقف على الحافّة كالمشلولة لا تستطيع تحريك حتّى رمشيها. يصله جذع شجرة طاف على وجه الماء بشكل مباغت، يتشبّث به حتى يصل إلى الضفّة التي نمت فيها شجيرات ملتفّة الأغصان، ثم يجرف التّيّارُ جذعَ الشجرة نحو أسفل المجرى حيث الصخور الصّلدة، فيتفتّت إلى قطع صغيرة يبتلعها الماء بشهيّة كبيرة.

بعد ليال عدّة من تكرار هذا الحلم قرّرت أن تقطع الشجرة خلال غياب زوجها في العمل. بيّتت النيّة وجهّزت المنشار وتوجّهت إليها. انتابها بعض الخوف والقلق من ردّة فعل زوجها عندما يعلم بفعلتها، لكنّها تغلّبت على تردّدها بسرعة ومضت بخطوات ثابتة نحو الشجرة. خطر على بالها جار قديم لأهلها عندما كانت طفلة بعمر التاسعة. مات فجأة دون أن يرقد في الفراش مريضًا كما يفعل باقي الناس قبل الموت. سمعت جدّتها تقول في ذلك الوقت وهي تجرّ حبّات السّبحة بين أصابع يديها: «قتلته الجوزة». اقتربت منها شاردة الذهن وحدّدت المنطقة التي ستنشر الجذع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندها. ما إن شدّت يدها على مقبض المنشار حتى سرت فيها رعشة مباغتة. خافت قليلا لكنّها تابعت النشر. فجأة جفّ حلقها وتيبّست يدها على المقبض ثم شعرت بدوار مفاجئ وسقطت على الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلدة المنكوبة

داهمته رغبة ملحّة للعطاس، فأطلق العنان لنفسه وراح يعطس بنهم وقوة. كانت دهشته عارمة عندما فتح عينيه ورأى الضفادع تتقافز أمامه على الشارع. نظر حولة باحثًا عن المكان الذي جاءت منه هذه البرمائيّات النشطة، لكنّه لم يصل لنتيجة مقنعة. شعر بلزوجة وطعم غريب في فمه. في خضم هذا الموقف الغريب عاوده الشعور عينه، لكنّه وضع يده على فمه هذه المرة، فأمسك بضفدع صغير. شعر بالخوف والقلق وعاد إلى شقّته بسرعة بعد أنْ تفقّد سويّة ربطة عنقه الخضراء وتأكّد أنّ أحدًا من المارّة لم ينتبه لما حدث.

شاع الخبر بسرعة في عرض البلاد وطولها عن البلدة المنكوبة بالضفادع التي غزت الشوارع والسّاحات والمنازل والمدارس والمطابخ وغرف النوم، وعلا صوت نقيقها فوق كل صوت، فما عاد النوم ممكنًا ولا عاد الرجل قادرًا على الاختلاء بزوجته. ارتفعت الأصوات المنكرة لهذا الوضع الغريب وخرج الأهالي في مظاهرات للاحتجاج على تقصير الحكومة في مكافحة الضفادع التي تتزايد أعدادها كل يوم. اعتبروا البلدة منطقة منكوبة وفرضوا عليها طوقًا أمنيًا حتى لا تنتقل الضفادع إلى البلدات القريبة. تناقلت الفضائيّات أخبار الضفادع وعجّت البلدة بالمراسلين الذين غطّوا الحدث ساعة بساعة، وأجروا مقابلات مع الأهالي لاستطلاع آرائهم حول سبب المشكلة؛ فعزا بعضهم السبب إلى المجاري السّيئة، وآخرون إلى البركة القذرة، وآخرون قالوا إنّها غضب السماء على البلدة التي أهملت الفقراء والمساكين. وعندما وصلوا إلى رجل بربطة عنق خضراء عطس بشكل مباغت وخرج من فمه ضفدع رطب. رفع مراسل الفضائيّة المحسوبة على الحزب المعارض حاجبيه استغرابًا ونظر إلى الكاميرا متوجهًا إلى المشاهدين: «وكما شاهدتم للتو الأعزّاء المتابعين لقناة .. فإن الضفادع قد غافلت سكان البلدة أثناء نومهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتسلّلت إلى الرئتين وربما وصلت إلى أعضاء أخرى، وما زلنا ننتظر إجراءات الحكومة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرأة المجنونة

المرأة المجنونة التي كانت تذرع شوارع المدينة، وتدعو بالويل والثبور على البنات والنساء اللواتي يصادفنها، دعستها مركبة مسرعة وماتت. كانت تسير تحت الشّمس بغطاء رأس محتشم وثوب واسع يستر جسدها جيّدًا وحذاء خفيف. يتحاشونها حتّى لا تصمّ أذانهم بزعيقها الحاد، لكن هذا التّدبير لا ينفع في كل الأوقات؛ فتراها تغافل إحداهن فتتبعثر أطرافها وحواسها ويعلو صدرها ويهبط. قالوا إنّ بعض من تعرّضن لهذه التجربة القاسية ظهر الشيب في شعورهن أول الأمر ثم تحول الشعر إلى اللون الأبيض تمامًا بعد أسابيع قليلة. وقالوا أيضًا إنّها كانت امرأة سوء، لكنّها تابت إلى ربّها بعد أن اهتدت إلى مكارم الأخلاق. عندما يئستْ من هداية النساء الضّالات بالحسنى، راحت ترعبهن حتى لا يخرجن إلى الشارع.

وبحسب تقارير البلدية فإنّ نسبة الرذيلة زادت في المدينة بعد موتها، فقرّر رئيس البلدية صنع تمثال لها ونصبه في أكبر ساحة في المدينة التي لا تنام. كانت تمدّ سبّابتها اليمنى إلى الأمام، وترسم على وجهها مزيجًا من تعابير الاستنكار والسخط والتهديد. عندما تنظر إليها فتيات الليل في السّاحة التي يتجمّعن فيها مقابل التمثال، يسخرن منها ومن سبّابتها اللعينة ووجهها السّاخط، بل إنّهن في مناسبات كثيرة قضين حاجتهن على قاعدة التمثال كلما اشتدّ البرد وضغط على مثاناتهنّ المنهكات.

تطور الأمر وخرجن في مظاهرات للمطالبة بإزالة التمثال الذي يمثّل الأفكار الرجعيّة ويصادر حرية المواطن أو المواطنة التي ترغب ببيع جسدها. كما تبيّن لاحقًا أن هناك عائلات كثيرة تعتاش من عائدات الرذيلة. وخوفًا من تصعيد الموقف وتحوّل الاحتجاجات إلى عصيان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدني قرّر رئيس البلدية إزالة التمثال، فثارت ثائرة المدافعين عن حقوق المرأة الذين قالوا إنّ الفتيات يُجبرن على ممارسة الرذيلة وليس هناك من ترغب بأن تكون عـا...، عادت المظاهرات إلى الشوارع ورفع المتظاهرون يافطات تؤكد أنّ عمل الرذيلة منظم من خلال نقابات مهنيّة تحفظ حقوق العاملين والعاملات في المهنة. قرّر رئيس البلدية عقد اجتماع لتقريب وجهات النظر بين الفريقين المتخاصمين، وكانت النتيجة أن يبقى التمثال في مكانه، لكن مع تعديل بسيط وهو إزالة غطاء الرأس.

استعادت المدينة هدوءها السّابق، لكنها ما لبثت حتى عادت المظاهرات إلى الشوارع بحجّة أنّ التعديل لم يكن كافيًا، وما زال التمثال يثير الرعب في نفوس العاملات في المهنة. عقد رئيس البلدية اجتماعًا ثانيًا لحلّ الخلاف، وكانت النتيجة أن تبسط المرأة يدها بدل مدّ سبّابتها بالصورة التِي كانت. لكن المظاهرات اندلعت من جديد في الأسبوع اللاحق للحجّة عينها، فعقد رئيس البلدية اجتماعًا ثالثًا لحل الخلاف وكانت النتيجة أن تتخلى المرأة عن تجهّمها وتبتسم قليلا، وبعد الاجتماع الرابع تحوّلت الابتسامة إلى ضحكة باذخة، وبعد الاجتماع الخامس تخلّت المرأة عن ملابسها المحافظة قليلا، وبعد الاجتماع السادس ظهر خلخال في ساقها اليسرى، وبعد الاجتماع السابع أصبحث تنتعل كعبًا عاليًا، وبعد الاجتماع الثامن ظهر عقد رخيص في عنقها، وبعد الاجتماع التاسع كانت ترتدي تنورة قصيرة لا تكاد تستر عورتها، وبعد الاجتماع العاشر ظهرث العبارة التالية فوق التمثال: الحياة قصيرة، فتمتّع بها ما دمت قادرًا على الانتـ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جولة في شوارع المدينة

شرطيّ السّير يثبّتُ النسخة الخضراء من المخالفة تحت مسّاحة الزجاج الأمامي لسيارة تقف في مكان ممنوع، وسيدة تنتعل صندلا بكعب عال تهرول بهمّة نحوه. تابع أصحاب المحلات القريبة والمارّة ما يحدث باهتمام، أقسموا إنّهم شاهدوا حمائم بيضاء مكتنزة تفرّ من صدرها وتضرب بجناحيها مذعورة وجلة.

***

سيّارة فارهة تقف على يمين الشّارع أمام محل لبيع النّظّارات، وتنزل منها سيّدة ثلاثينيّة ترتدي ملابس «الجيم». تمرّ سيّارة «تاكسي»، فيحدّق السّائق في ظهر السيّدة المكشوف ومؤخرتها التي يكشف تفاصيلها «شورت» ضيّق للغاية. تنحرف السيّارة وتصدم بائع اليانصيب الذي يقف على حافة الشارع، فتلقيه على بعد ثلاثة أمتار. تتطاير أوراق اليانصيب في الهواء، يتجمّع المارّة ويتخاطفون الأوراق قبل أن تصل الشرطة وسيّارة الإسعاف.

***

فتاة صغيرة مقطوعة اليد تتسول باليد الأخرى، فيعطف عليها الناس ويعطونها أكثر من غيرها. غابت عن الإشارة الضوئيّة لبعض الوقت وعندما عادت كانت تستند إلى عكّاز بدل قدمها التي تعرضت لحادث فيما يبدو واضطرّوا لبترها؛ فاستدرّتْ عطف النّاس أكثر وأكثر. غابت عن الإشارة الضوئيّة لبعض الوقت، وعندما عادت كانت قد خسرتْ يدها الأخرى في وضع غريب ومحيّر، فاستدرّتْ عطف النّاس أكثر وأكثر. غابت وعادت كعادتها، لكنّها كانت تجلس في كرسيّ مدولب هذه المرّة، ويدفعها رجل بغيض الوجه بعد أن فقدت قدمها الأخرى، فاستدرّتْ عطف النّاس أكثر وأكثر. بعد عودتها اللاحقة كانت تضمّد إحدى عينيها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخضراوين بشاش أبيض، فاستدرّت عطف النّاس أكثر وأكثر. وبعد أسابيع، عندما عادت كانت تضمّد عينها الأخرى، فاستدرّت عطف النّاس أكثر وأكثر. غابت عن الإشارة الضوئيّة كما تفعل كل حين، لكنّها لم تعد هذه المرّة وظلّ الذين يقفون على الإشارة الضوئيّة يسمعون صوت حشرجة وأنينًا مما دفعهم للزهد بها وتحاشي المرور منها، الأمر الذي عمّق أزمة السير عند إشارات ضوئيّة أخرى. حاولت البلدية تشجيع المواطنين على استخدام الإشارة الضوئيّة المهجورة من خلال إعفاء من يمرّ منها من مخالفات السّير لآخر ثلاثة أشهر، فترك النّاس الإشارات الأخرى وتحوّلوا إلى الإشارة المهجورة ولم يعد أحد يسمع صوت حشرجة الفتاة المسكينة مجدّدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصّة رجل نائم

أقسمَ أنّه لم يصحُ من تلك الغفوة على عتبة الدّار وهو طفل في السابعة من عمره. كل ما كان قبل ذلك، وكل ما كان بعد ذلك مجرد خيالات ومقاطع سريعة على طريقة «الفيديو كليب»، لا يُفهم منها شيء محدّد. تقول زوجته ضاحكة: «هذا يعني أنّك كبرتَ وذهبتَ إلى الجامعة وعملتَ وتزوجتَ وأنجبتَ وأنت نائم، لو أنّك صاح، ماذا كنت ستفعل؟». فجأة، يبدو الوجوم على وجه الزوجة، ثم تقول بعفوية: «أحببتني وتزوجتني وأنت نائم، من يضمن ما سيحدث عندما تصحو؟ قد تجد امرأة أخرى وتهرب معها إلى بلاد بعيدة».

منذ ذلك الحين وهي تطالع وجهه كل صباح لتطمئن أنّه ما يزال نائمًا. ينهض من سريره ويجلس على أريكته فيجد قهوته وقد تصاعد منها بخار كثيف على «طربيزة» صغيرة أمامه. يفتح رواية «قصة موت معلن»(1) لماركيز التي يقرأها في كل صباح منذ سنوات بعيدة، ويغرق بين سطورها فلا يعود يسمع أو يرى ما يجري من حوله. في المساء وقبل النوم تسأله الزوجة عن الرواية فيقول: «أظنّ أنّها رواية عن الظلم». تعيد السؤال في الليلة اللاحقة فيردّ: «أظنّ أنّها رواية عن الحظ العاثر». وفي الليلة التي تليها يقول إنها عن الحب أو الجهل أو الغدر أو المؤامرة أو التّعصّب أو الكراهية أو ...

عادتْ إلى الصّالة حيث يجلس ولم تجده في أريكته. بحثتْ عنه بلا جدوى، لكنّها عثرتْ على رسالة مطويّة بشكل جيّد على «الطربيزة»: «لا تبحثي عني. لا أعرف أين أكون اليوم أو غدًا، ما أعرفه أنّ الوقت قد حان لأصحو من نومي وأنقذ سانتياغو نصّار من مصيره البشع».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المقهى الأدبيّ

يجلس في المقهى الأدبيّ في وسط البلد كعادته في مثل هذا الشّوط من النهار. كان الوقت عصرًا وازدحام النّاس والسّيّارات سبّبا له الضيق والتّوتر، علاوة على الجو الخانق والغبار الذي شوّش الرؤية في شوارع المدينة. أحضر له الفتى الذي يعمل في المقهى فنجان قهوة سادة كما يطلبه كلّ مرّة دون أن يتقدّم منه ويسأله عمّا يودّ شربه، وضع الفنجان أمامه ومضى. تهيّأ له أنّ الفتى مستعجل بعض الشيء، لكنّه لم يمانع بل رحّب بالفكرة ونقده ابتسامة سرعان ما تلاشت. في البداية ظنّ أنّه الوحيد في المقهى، لكنّه عندما انحرف بجذعه أدرك أنّ الطّاولة التي في الخلف، وفي أبعد نقطة عنه مشغولة. علث وجهه ابتسامة خفيفة عندما استعاد النظرة التي استطلع فيها الطاولة والجالسَيْن إليها؛ كان أحدهما يعتمر القبعة الكولومبيّة التي تزيّنها دوائر بالأبيض والأسود وأشكال ورسومات مختلفة، تمامًا مثل تلك التي يظهر فيها غابريل غارسيا ماركيز في بعض صوره على الإنترنت. هزّ رأسه كأنّه يوافق على الفكرة التالية التي خطرت له: «حتّى أنّ هيئته تشبه هيئة ماركيز في كثير من التفاصيل، الوجه الدائري والحاجبين الكثيفين والشاربين المشذّبين والشّعر الأبيض والجبهة العالية والرقبة القصيرة». لم يستطع كتم ضحكة مباغتة عندما استعاد ملامح الشخص الآخر الذي يجلس إلى الطاولة. يشبه نجيب محفوظ بنحوله وجبهته التي اكتسحتْ المناطق المجاورة حتى وصلتْ إلى منتصف الرأس، والأهم من هذا كلّه الشّامة المعروفة على يسار منخره الأيسر. نظر حوله لعله يلمح فتى المقهى حتى يشاركه الخواطر الغريبة التي تغافله في هذا العصر المغبرّ، لكنّه لم يره بعد أنْ أحضر القهوة: «ربّما ذهب في مشوار قريب، ويعود بعد قليل».

سمع صوت الكراسي وهي تُزاح، وعرف أنّهما نهضا للمغادرة، وسيمرّان من أمامه خلال لحظات للوصول إلى الباب. حفّ أحدهما بالطاولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلاستيكيّة التي يجلس إليها، فاهتزّت وانكبّ فنجان القهوة الذي أمامه، وأراق السائل الأسود على مفرش الطاولة البالي، فنهض مسرعًا قبل أن تصل القهوة إلى بنطاله. استدار قليلا حتى أصبح مواجهًا لهما. أخذ الرجل الذي يعتمر القبّعة الكولومبيّة بالاعتذار بلغة أجنبيّة بحرارة وتضرّع، وراح وجهه يحمرّ من شدّة الحرج. لم يصدّق ما يرى. فرك عينيه بقوة حتى وصله صوت الرجل الآخر: «معلش يا أخينا، العتب على النظر.. أصل دا روائي كولومبي عايز يزور أماكن مختلفة عن بلده وثقافته؛ عشان تلهمه لرواية جديدة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السّيّدة بالنّظّارة السوداء

كانت تستر عينيها الخرّوبيّتين- كما خمّن ذات يوم- وجزءًا من وجهها بنظارة سوداء واسعة. تصرّ على وضعها بغض النظر عن فصول السنة أو حالة الطقس المتقلّبة، ولا تنسى المنديل الأسود الذي يلملم خصلات شعرها، ويغطّي خدّيها وذقنها. تنتقي الخضار والفاكهة من المحل المقابل للبناية مباشرة، وتدفع ولا تناقش الأسعار كما تفعل باقي السيّدات. كان يتحرّش فيها حتى يدفعها للكلام بدافع الفضول وليس أيّ شيء آخر؛ يلقي عليها تحيّة الصباح فتردّ عليه بإيماءة خفيفة من رأسها، يعلّق على أمر ما يتداوله الناس فتقابله بفتور مزعج. بعد بعض الوقت توقف عن محاولاته واستسلم لرغبتها بعدم الكلام.

يعرف كل السيّدات اللواتي يسكنّ البناية، يتبادل معهن أحاديث عابرة ويسمعهن يتحادثن في أمور خاصّة أحيانًا وهنّ ينتقين الخضار، لكنه يتظاهر بالانشغال بأمر ما في المحل. السيّدة التي تمضغ اللبان في كل أوقات النّهار جرّبت كل أنواع «الريجيم» بلا فائدة. تصرّ على أنّها تأكل نصف ما يأكله زوجها الذي يحافظ على جسم مشدود ورياضي، بينما هي تعاني من حجم فخذيها المترهّلتين. السيدة التي اشترى زوجها سيّارة «رنج روفر» في الصيف الماضي تشكو من إهماله وعدم اهتمامه بها. قالت للتي تقف إلى جوارها وظنّت أنّها تهمس لها: «لم يقترب منّي منذ ثلاثة أشهر». أمّا السيدة التي انتقلت مؤخرًا للبناية واستأجرت «الرّوف» فهي مطلّقة. لديها ابن يعاني من متلازمة داون، كما أنّ أمها عاجزة ولا تستطيع قضاء حاجتها من دون مساعدة. مع مرور الوقت أصبح يعرف أسرار البناية وسكّانها إلا السّيّدة بالنّظّارة السوداء. تحدّث لصديقه عنها وأبدى استغرابه من سكوتها الدّائم، وهيئتها الصّارمة، فرفع الصديق رأسه دون أنْ ينظر إليه: «هذه المرأة تتعرض للضرب من زوجها، وتحاول أن تخفي الكدمات بوضع نظّارة سوداء ومنديل أسود. هؤلاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتحاشين الاختلاط بالنّاس لأنّهنّ يشعرن بالإحراج الشديد والخوف والقلق».

قرّر أن يسأل إحدى السيّدات عنها. قدّم لها وصفًا دقيقًا، لكنّها هزّت رأسها نافية علمها بوجود هذه المرأة في البناية. سأل أخرى وتلقّى الإجابة عينها، وأخرى وأخرى حتى تكوّنت لديه قناعة أنهنّ اتفقن على ممازحته بخصوص السّيّدة بالنّظّارة السوداء التي اختفت من الحيّ ولم تعد تأتي إلى المحل منذ ذلك اليوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحث عن نهاية..

وقف مذهولا من أسئلة لجنة المقابلة الشخصيّة. يبحث عن عمل منذ تخرّجه، وتقدّم لأكثر من وظيفة من دون نتيجة. انفرجت أساريره عندما وقع نظره على الإعلان في الصحيفة؛ شركة اتصالات بحاجة لمهندسين حديثي التّخرّج. لم ينم تلك الليلة؛ لأنّ الشروط تنطبق عليه تمامًا من حيث العمر والتّخصّص والجامعة التي تخرّج فيها وغيره من الأمور التي تكاد لا تنطبق على أحد سواه. نهض مبكّرًا وارتدى أفضل ما لديه. استقلّ الحافلة الوحيدة في القرية، وسرّح خياله بآمال عريضة حول الوظيفة والحياة والمستقبل.

كانت السّيدة التي تجلس في الوسط توجّه الأسئلة ولا تعطيه فرصة للإجابة. استغرب من تصرّفها لكنّه حافظ على هدوئه وظنّ أنّ الاستفزاز الذي يتعرّض له جزء من المقابلة. عندما عاد إلى القرية كانت أمّه تنتظره في أوّل الشّارع. لوّحت له فحثّ الخطى إليها. سألته عن المقابلة فلم يجب، ولمّا أعادت السؤال قال: «سألتني عنكِ؟». ضحكت وظنّت أنّه يمازحها. دخلا الدّار فتقدّم منه أبوه واستفسر منه عن طبيعة الأسئلة في المقابلة فقال: «سألتني عنكَ؟». ضحك الأب ودعا له بالتوفيق والنجاح. وفي المساء خرج إلى الدّكان الوحيد في القرية، فصادف مدير المدرسة الابتدائية في القرية، سأله عن المقابلة فقال: «سألتني عنكَ؟». فابتسم ومضى في حال سبيله.

في الصباح نهض شارد الذهن وهو يحاول تذكر الحلم الذي راوده طوال الليل لكنّه لم يفلح. حالما تخفّف قليلا من إلحاحه لتذكر الحلم، رفع رأسه وقد استعاد ما رآه في المنام؛ كانت السيدة التي أجرت معه المقابلة في الشركة، ووجّهت له أسئلة غريبة. هذه المرّة سألته عن شخص لا يعرفه؛ عن جارة قديمة لأهله كانت تسكن الدّار المجاورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهم. اتّهموها بالفاحشة وهدّدوها فغادرت القرية إلى جهة غير معروفة. يعرف الدّار جيّدًا فقد تحوّلت إلى خرابة مهجورة تسكنها القطط والغبار والذكريات. لطالما اقتحم بوّابتها الخارجيّة ودخل الحوش ولعب هناك بعيدًا عن الأعين. ألحّت عليه في المنام وهي تسأله عن هذه الجارة التي لم يرها في حياته. سأل أمّه وأبيه عنها، فارتبكا وتبادلا نظرات غريبة، وتشاغلا بأمر ما للتّهرّب من الإجابة.

ذهب إلى المدرسة الابتدائية وقابل المدير. سأله عن المرأة التي كانت تسكن الدّار المهجورة، فتحجّج بقرع الجرس ولم يعطه إجابة عن سؤاله. لم يجد غير إمام المسجد ليسأله، فقصّ عليه الأخير ما حدث بتفاصيله الدقيقة بعد أن أصرّ عليه. شرح له كيف تعرّضت للظلم من جيرانها، وكيف اتّفق الجميع على نفيها من القرية لأنّها آثرت البقاء عازبة ورفضت أن تتزوج. خرج من عنده مصعوقًا، ولم يعد للمنزل إلا بعد منتصف الليل. في الصباح تسلّل من الدّار بعد أن لملم أغراضه في حقيبة صغيرة، وغادر القرية بحثًا عن نهاية ترضيه لقصّة الجارة التي كانت تسكن الدّار المهجورة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الحبّ والصّمت

تنهض باكرًا وتخرج إلى الحديقة حاملة فنجان القهوة. تضعه على الطاولة البلاستيكيّة وتنشغل بتفقّد الورد الجّوري، فتنسى أو تتناسى القهوة التي تشربها باردة. تلبس قفّازات العمل في الحديقة، تزيل الحشائش الضّارّة وتنكش الأرض حتّى لا تشتدّ فتمنع وصول الماء إلى الجذور، كما تستخدم المقص لإزالة الأغصان المصابة أو المتكسّرة أو المتشابكة.

تتابع تفتّح كل وردة. تحبّ أن تعيش معهن دورة الحياة كاملة. تحسب الأيّام اللازمة للتّفتّح، وقد تجلس في الفجر ساعة لتشهد لحظة الولادة. تشعر بدهشة عارمة وهي تراقب السبلات يرخين قبضتهن شيئًا فشيئًا ليتغيّر شكل تكوّرهن ويمهّدن السبيل للبتلات الحمر للقاء الفجر ونشر اللون الأحمر في الأثير الرطب. حركة بطيئة لكنّها ملحوظة. ينتفخ صدرها غبطة وسرورًا كلما رأت جوريّة حمراء جديدة تختال في حديقتها الصغيرة التي تأتي على الرصيف مباشرة ولا يفصلها عنه سوى سور منخفض.

تدبّ الحياة فجأة في الشارع بعد السكون والهدوء، وتظهر طالبات المدرسة بالمراييل الخضراء من الشوارع الفرعيّة. يلقين عليها تحيّة الصباح، فتردّ بابتسامة دافئة. تقول في نفسها: «أرجو ألا تصبحن بمثل عمري وليس لديكن سوى ورود حمراء». عندما تسألها إحدى البنات وردة ترفض بشدّة وتقول: «الوردة لنراها ونشمّها وليس لنقطفها». تخالف هذه القاعدة في عيد الحب، بل إنّها توزّع الورد على طالبات المدرسة والجيران. عندما سألوها عن هذا التّناقض قالت: «لا أحد يستطيع أن يمنع الحب مهما كان عنيدًا وقاسيًا». كان لها قصة حب عاصفة في شبابها انتهت بالفشل بسبب عناد أهلها الذين يرقدون في المقبرة الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تركوها وحيدة بلا زوج أو سند بعد أن رفضت الزواج من غير حبيبها الذي ظلّ على عهده لها ولم يتزوج هو الآخر. مضت الأيام ورضخا للمصير المحتوم. أصبحا على مشارف السّبعين، وما زال بينهما حب وصمت لا ينقطعان.

لم تعد تظهر في الحديقة كعادتها كل صباح. استغربت البنات اللواتي تعوّدن رؤيتها كل يوم. سألن عنها الجيران فقال بعضهم إنّها دخلت المستشفى لوعكة ألمّت بها، وذكر فريق آخر إنّها هاجرت إلى هولندا بلد الزهور، بينما صرّح آخرون إنّها انتقلت إلى شقّة في حيّ بعيد، وأكّد بعضهم أنّهم شاهدوها تخرج برفقة رجل في مثل سنها ولم تعد لغاية الآن. كانت دهشة البنات تفوق الوصف، عندما جاء عيد الحبّ وكانت على الرصيف بجوار سور الحديقة سلّة كبيرة فيها باقة منسّقة من الورد الأحمر. تناولت كل واحدة منهنّ وردة، ابتسمن في وجوه بعضهن بعضًا، التفتن حولهنّ بحثًا عن السيدة، كنّ متيقّنات أنّها موجودة في مكان ما لكن لم يعرفن أين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العتبة

كان يعود من عمله في مصنع الكرتون متعبًا مهدود الحيل، يجرّ ساقيه حتى يصل إلى سريره المتهالك. يشعر برغبة ملحّة للنوم، يغفو لساعة أو ساعتين، ثم يصحو على أصوات معدته التي تزمجر من الجوع. ينظر في المطبخ ليحضّر شيئًا يأكله، لكنّه لا يجد ولو كسرة خبز ليغمّس بها من قلاية البندورة التي اشتهى رائحة البخار الممزوج بالثوم المتصاعد منها في مثل هذا الجو البارد. ارتدى معطفه البالي، ونزل الدرجات التي يخطئ في عدّها كل مرّة.

كانت آخر ربطة خبز في السوبرماركت، دفع ثمنها حامدًا ربّه على هذا الحظ الوفير ثمّ توجّه إلى الدرج وشرع بصعوده بتمهل، توقّف مرتين ليلتقط أنفاسه قبل أن يصل إلى نهايته. كانت المرّة الأولى حيث يجلس الرجل العجوز الذي يتسوّل بصمت لا ينتهي بمعطفه الثقيل البالي ورأسه الصغير كرأس قنفذ. الوقفة الثانية كانت إلى جوار شاب وفتاة في العشرينيّات من عمرهما. عرف أنّهما سائحان من لون الشعر وجرأة ألوان ملابسهما. لطالما افتتن هؤلاء السيّاح بوسط البلد وقاع المدينة. كان يمسك يدها وينظران إلى أسفل الدرج حيث المارّة والازدحام على الرغم من لسعة البرد. قطعا لحظة التّأمل ونظرا إليه. ابتسمت الفتاة بعذوبة قبل أن يتابع صعوده الذي أتعبه أكثر من المعتاد.

رفع قدمه قليلا ليتجاوز عتبة الباب فشعر أنّها قد ارتفعت أكثر مما كانت عليه من قبل. استدار ونظر إليها بتفحّص، أمال رأسه لليمين ثم إلى اليسار وهو يتمايز بها ويدقّق بارتفاعها عن البلاط. لأول مرّة يدرك أنّها أصبحت ناعمة جدًا وملساء، وليست على استواء واحد بل هي متآكلة من جهة اليمين بشكل واضح. لم يقف هناك طويلا بسبب الأصوات التي أصدرتها معدته لتذكره بالعشاء والقلاية. قطع حبّات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البندورة، وسكب آخر ما تبقّى من قنّينة الزّيت في المقلى عندما تذكّر أنّه استهلك آخر فص ثوم لديه قبل ليلتين. شعر بالإحباط والغضب وكاد يبكي، لكنّه تماسك في اللحظة الأخيرة وتذكّر أنّ جارته الأرملة تجهّز لأبنائها قلاية كل ليلة، فهو يشمّ رائحة الثوم القادمة من الدّار المتصدّعة التي تسكنها. «الجار للجار حتّى لو كانت أرملة. لطالما قرع أحد أبنائها بابي ليطلب رغيفين أو ثلاثة».

توجّه إليها بسرعة ووقف وراء الباب، ونادى على ابنها الأكبر محمود الذي برز له بابتسامة خفيفة. صبيّ في الحادية عشرة من عمره لكنّه كما تقول أمّه مشيرة إلى حذاقته وذكائه: «ربّك يكسر ويجبر، الله عوّضني بمحمود عن الدنيا كلها». صاحت أمّه سائلة عن الطارق فقال: «هذا جارنا عازف الربابة يريد قرعة ثوم». مع أنّه طلب فصًا واحدًا، لكن محمود أحضر له قِرعة كاملة. شكره وقفل عائدًا إلى داره. تعجّب من قول محمود، عازف الربابة، التي انقطع وترها منذ أشهر ولم يعد يعزف عليها كما كان يفعل كل ليلة.

شعر أنّه سيتعثّر بالعتبة، فرفع قدمه أكثر من المرّة السابقة. «ماذا يحدث؟ أصبحت العتبة أضعاف ارتفاعها السابق. كيف يحدث هذا؟». نفض رأسه أمام هذا الوضع الغريب، لكنّ جوعه كان أكبر من فضوله فولج الدار ليتابع تحضير العشاء. انتشرت الرائحة الشهيّة في المطبخ وحملها الهواء البارد عبر شقوق الجدران، وتسريب النوافذ إلى الحيّ القديم الذي يقف مثل فارس عجوز على صهوة حصان يكاد يسقط من طغيان العمر الذي سلبه كلّ شيء. وضع الخبز والقلاية على طاولة صغيرة بثلاث أرجل، وراح ينتظر غليان الماء في إبريق الشاي. لا أحد يأكل القلاية من دون كوب من الشاي بمعلقتين كبيرتين من السّكّر. فتح علبة السّكّر التي تصطفّ إلى جانب علبة الشاي والملح. فتح فمه وعينيه عندما أدرك أنّها فارغة. دقّق في قعرها فوجد سكّرًا متكلّسًا ممزوجًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقطرات الماء وربّما الشاي، فقرّر أن يكحتها ويستخدمها لتحلية كوبه للعشاء، تجمّع لديه ما يعادل ملعقة واحدة لكنّها لا تكفي؛ فهو يحبّ أن تعلق حلاوة الشّاي بلسانه لأطول وقت ممكن. تثاقل من العودة إلى دار الجارة أم محمود لكنّه حزم أمره وحمل حرجه بتثاقل وبطء وطرق بابها مجدّدًا، ففتحث له هذه المرة وليس محمود. مدّ إليها فنجانًا صغيرًا وطلب بانكسار موجع بعض السّكّر. لبّت بسرعة وأعادت له الفنجان مليئًا كما طلب.

وقف أمام العتبة التي ارتفعت هذه المرّة حتّى سدّت الباب تمامًا. كان عاجزًا أمام هذه العقبة اللعينة. فكّر بالدخول من النافذة لكنها مغلقة بإحكام كما أنّها عالية بعض الشيء. فكّر بالذهاب إلى المتسول على الدرج ليتدفأ بمعطفه الثقيل، وفكّر بالعودة إلى السائحة التي ابتسمت له قبل قليل والجلوس بينها وبين صديقها فيأخذ من الدفء الذي يشعران به. كانت أفكارًا متضاربة وصورًا سريعة المرور ولم يستقرّ على إحداها. عندما أعيته الحيلة جلس على الأرض يائسًا مهزومًا وأسند ظهره إلى العتبة حتى يبزغ الفجر لعله يأتي بجديد.

فتح محمود باب دارهم ليذهب إلى المدرسة كعادته كل صباح، فوجد جارهم ملقى على الأرض أمام عتبة داره بلا حراك وبيده فنجان السّكّر، بينما تعالت أنغام الربابة حزينة ومنكسرة من داخل الدّار.

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقرة هندوسيّة

يُحكى أنّ بقرة كانت تعيش في بلاد هندوسيّة شاسعة، سقطت في النهر الكبير لأنّها لم تنتبه للأرض الزلقة التي كانت تقف عليها نتيجة للأمطار التي أغرقت الشوارع، وضعضعت أكواخ القش التي تحمي رؤوس النّاس في أطراف المدينة. ركض الهندوس لإنقاذها، لكن مجرى النهر كان في أقصى اتّساع له، كما أنّ تدفّق المياه كان صاخبًا وهادرًا. نظروا إليها بأسى وهي تجاهد التيار للوصول إلى الضفة القريبة بلا فائدة. كان رأسها يعلو ويهبط خلال اندفاعها السريع، وجسمها يرتطم بحجارة القاع. أدركتْ أنّه لا فائدة من مقارعة هذا المدّ العرمرم، فاستسلمتْ للتّدفّق الذي مرّ بها على بلدان كثيرة، وحطّ بها الرحال في آخر المطاف في بلاد صحراويّة جافة. اقتربتْ من الضّفّة ببطء لتخرج من الماء بعد أن أصبح ساكنًا وأليفًا. سمعتْ أصواتًا قريبة فالتفتت، فإذا بهم رجال يركضون باتجاهها. قدّرت أنهم جاؤوا لتحيّتها. كانت منهكة وتشعر بألم الرضوض التي تعرّضت لها خلال رحلتها الطويلة في مجرى النهر. أحاطوا بها ونظروا إليها وعلى وجوههم ابتسامات غامضة. رفعت رأسها صوبهم، فانتبهتْ أنّهم لم ينحنوا على سبيل التحيّة، كما أن هيئتهم ولون بشرتهم وشعورهم تختلف عن المألوف لديها. لم تكترث كثيرًا لما هي فيه من التّعب والإعياء. كانت تنفض رأسها بقوة لتتخلّص من الماء العالق به عندما لسعها أحد الرجال خلفها بضربة قوية من خيزرانة كانت بيده. انحنى ظهرها من شدّة الألم وانثنت قائمتاها الخلفيتان، ثم اختلّ توازنها وسقطت على الأرض. ارتفعت قهقهات الرجال، وهم يتابعون محاولاتها الفاشلة للنهوض. قدّرت أنّهم يمازحونها، فتقبّلت دعابتهم السمجة ونهضت بتثاقل واضح. وضع أحدهم حبلا حول عنقها وجرّها خلفه بعنف. مضوا في طريق موازية للنهر، ولم يخلُ الأمر من ركلة أو صفعة مباغتة لحثّها على المسير على الرمل الساخن الذي غاصت فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حوافرها، فأعاق حركتها. قالت في نفسها: «لا بدّ أنّ يعتذروا لي عندما نصل إلى وجهتهم».

وصلوا إلى مزرعة شاسعة يحيط بها سور عال. تتوزع دور من المرمر في أطراف المزرعة، وتتعالى منها أصوات الدّفوف وروائح البخور. شعرتْ بالاستياء عندما وضعوها في حظيرة حقيرة تفوح منها روائح مزعجة، لكنّها قدّرتْ أنّهم سينقلونها بعد حين إلى إحدى هذه الدّور المرمريّة. جاء المساء وحان وقت حلبها، شدّ الرجل ضرعها فخرج الحليب ضعيفًا. قام ولطمها على وجهها. ظنّت أنّه فعل ما فعل على سبيل التشجيع، فتجاوزت عن إساءته. في الصباح جاء رجل آخر فشدّ ضرعها ولم يخرج الحليب فلطمها هو أيضًا، وقبل أن يمضي وضع لها بعض الطعام في المعلف. لم تعجبها رائحة العلف فعفّتْ عنه وأشاحت وجهها على الرغم مِن جوعها.

في الصباح جاء رجل ثالث وحاول حلبها من دون نتيجة فلطمها ومضى. تكرّر الأمر في الأيام التّالية فأصابها الهزال لقلّة الطعام. أحضروا لها ثورًا عظيم الجثّة ليلقّحها عسى أنْ تنجب بقرة أفضل منها. ما إن أنهض الثور قائمتيه الأماميّتين واتكأ بهما على ظهرها حتّى خرّت على الأرض من ثقله وقوته. حاول معها مرة ثانية وثالثة من دون نتيجة. استاءتْ من الثور الذي لم يستأذن للدخول عليها، لكنّها قدّرتْ أنّه فقد الإحساس باللياقة والمروءة بسبب جمالها الأخّاذ، فغفرت له.

تناقشوا بأمر البقرة التي جفّ ضرعها وقرّروا ذبحها. بطحوها أرضًا وسنّوا السّكّين جيدًا. لم تخف وظنّتْ أنّهم يمازحونها كعادتهم. شعرتْ بالنصل البارد على رقبتها، وظلّتْ رابطة الجأش لأنّها كانت على يقين أنّهم سينهضونها بعد قليل، ويأخذونها إلى مزارع خضراء فيها حشائش طريّة وينابيع مياه لا تنتهي، وشموس رقيقة تبثّ الدفء والحياة، تمامًا كما كانت حالها قبل أن تسقط في النهر الكبير، ولكن على الرغم من كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قناعاتها فقد حدث ما حدث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساعة الحائط

دخلت الحانة باستعلاء واضح، وتعمّدت عدم النظر نحو الطاولات المشغولة. استقرّت على كرسي في الطرف البعيد والمعتم من المشرب. كان الكرسي بأرجل طويلة وبدون ظهر. توجّه إليها السّاقي بكسل أو إهمال أو عدم اكتراث، لم تعرف أيّها الأقرب إلى واقع الحال، لكنّها لم تهتم. طلبت مشروبًا خفيفًا، وأدارت ظهرها للجّالسين إلى الطاولات المشغولة حتى لا يحدث ما يحدث كلّ مرّة.

تناولت مشروبها بتؤدة، واستمعت للموسيقى وتفاعل إحساسها مع الإضاءة الخافتة حيث تجلس. تقدّم أحدهم من السّاقي وطلب إليه بصوت مسموع أن يضع موسيقى أقلّ كآبة من هذه، توقّعت أنّها مجرد حجّة ليبدأ حديثًا معها، لكنّه لم ينظر إلى الجهة التي هي فيها، بل استدار وعاد إلى طاولته. بعد مضي بعض الوقت قالت في نفسها: «هناك شيء غريب يحدث في هذه الحانة». التفتت خلفها ودقّقت في وجوه الرجال وهيئاتهم، بدوا لها عاديين جدًّا؛ فيهم من الخشونة والتوق، ولن يمانعوا بالتقاط امرأة شهيّة في حانة حزينة في مساء بارد في مدينة تعبد الشمس التي تغيب طويلا، امرأة ثلاثينيّة بصدر ممتلئ وابتسامة فاتنة وبطن ضامر وجلد مشدود، والأهم من هذا أنّها امرأة شاردة وقابلة للترويض. شعرت بالغضب والإهانة، نهضت، وتوجّهت نحو الباب للخروج من هذا الجحر الكئيب، عندما لفتها انعكاس صورة لامرأة متقدّمة في السن عن مرآة في زاوية مخفيّة عند المدخل. لم تنتبه لها عندما دخلت بسبب الإضاءة الخافتة. نظرت وراءها لترى السّيّدة السبعينيّة كما قدّرت. لم يكن هناك أحد؛ فقط هي والمرآة. لم تصدّق ما ترى، رفعت يدها اليمنى فارتفعت اليد اليسرى في الانعكاس، ثم رفعت اليسرى فارتفعت اليد اليمنى في المرآة. مدّت لسانها فبدا متشقّقًا ثم انتبهت إلى مكياجها الرخيص وأساورها القبيحة، انحرفت لليسار قليلا فظهرت حدبة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهرها، رفعت ثوبها لتكشف ساقيها اللتين علاهما شعر مهمل منذ سنوات بعيدة. التفتت حولها وأسرعت خارجة من الحانة لتعود إلى شقّتها وتبحث عن ساعة الحائط وتعلّقها مكانها بعد أن أخفتها لأربعين عامًا في مخزن (الكراكيب).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صندوق الذاكرة

يصل إلى منزله المتهالك بعد يوم عمل طويل. ينظر إلى الحَنِيَّة(2) التي تعلو الباب، يتفحّص تقوّسها الذي يزيد كل يوم ويؤشّر إلى ارتفاع احتمالية سقوط السقف على رأسه. يدخل بحذر ويضغط على مفتاح الكهرباء فتتراكض الصراصير إلى مخابئها. يجلس على الأريكة التي تظهر تضاريس هيكلها الخشبي، مثل صور أطفال أفريقيا التي تلتقطها الفضائيّات ويبدو فيها القفص الصدري نافرًا معدود العظام. يفتح صندوق الذاكرة الذي يحرص على إفراغه كل ليلة قبل النوم حتى لا تتراكم فيه صور (النيجاتيف) فيظهّرها أولا بأول. الصورة الأولى التي تراءت له: الرجل الذي ينام على كرتونة في الزّاوية التي يتّخذها سائقو (السرفيس) خلال النهار ملاذًا أخيرًا لقضاء الحاجة. مع شقشقة الضوء يسند ظهرهَ إلى السّور، ويتابع المارّة الذين يتزايدون كل دقيقة. لا أحد يعرف لماذا هذه الزاوية بالذّات، ولم يفكر أحد بطرح هذا السؤال الشائك عليه. رائحة الزاوية قوية ولونها مختلف لتشبّعها بالأحماض عديمة النفع التي تُطرح مع البول. يرتدي معطفًا أسود ثقيلا ورثًّا، لكنّه يصلح للتّدثّر في ليالي الخريف الباردة، لحية بيضاء مهملة، وأنفاس ضحلة للغاية لكنّها ذريعة مناسبة جدًّا لعدم دفنه تحت التّراب. انقطع حبل أفكاره والتفت نحو صرصار تجرّأ للخروج من مخبئه، فتابعه وهو يتبختر على البلاط بتؤدة وخيلاء غير معروفة المنشأ.

Telegram:@mbooks90

عاد إلى صور (النيجاتيف) مرّة أخرى فظهرت له صورة عصفور الدّوري الذي استمرّ بنقر باقي تفاحة ملقاة على حافّة السّاحة، بينما صعدت باقي العصافير إلى أسلاك الكهرباء القريبة عندما شعرتْ بالفتى الأعمى الذي كان يضرب الأرض بعصا ثخينة ليستدلّ بها على طريقه. حاولتْ العصافير تنبيه العصفور الصغير الذي خاطر بحياته في سبيل هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللحظة ورفض التّخلّي عنها مهما كانت النتيجة، كان يستمتع بآخر نقرة عندما هبط طرف العصا على رأسه فسحقه وعلق العصفور بالعصا مثل سمكة علقت بطرف الصّنّارة.

بدأ النّعاس ينال منه فعجّل باسترجاع ما رآه اليوم. عمّال النظافة ينتبهون إلى وجود طفلة في السابعة -كما قدّروا- في الحاوية قبل أن يجهّزوها للرفع وقذف ما فيها إلى جوف الضاغطة الذي لا يشبع. كانت تمسك بيدها نصف رغيف، وعلبة سردين منتهية الصلاحيّة. أدار قرص الذاكرة بسرعة حتى وصل الى صورته هو ذاته عندما ثارت ريح مباغتة قبل أن يصل إلى داره الحقيرة. كان يقف على أعلى نقطة في الشارع المنحدر. أفلت منه كيس (النايلون) الأبيض الذي جمّع فيه علب البيبسي طوال النهار، فتدحرجت حتى وصلت إلى وسط البلد. أغلق صندوق الذاكرة وأغمض عينيه بقوّة كما يفعل كل ليلة عندما يسمع صوت تفسّخ الحَنِيَّة فوق الباب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليلة خسوف القمر

عرفتْ أنّ الليلة ليلة خسوف القمر من نشرة الأخبار التي كانت تتابعها على إحدى الفضائيّات، ارتشفتْ من فنجان الشّاي الأخضر بتمهل كأنّها تخشى زوال المتعة التي تخامرها الآن. تذكّرت دارهم في حيّ المصدار وأهلها وحياتها هناك قبل أن تتزوج وتنجب ويكبر أولادها ويتزوجون، ثم يتوزّعون في قارات العالم القديم والجديد، ويتركونها وحيدة في شقّة واسعة. تنهّدتْ وقالت في سرّها: «كل شيء تغيّر حتّى خسوف القمر». كانوا يبتهجون في هذه الليلة كأنّها ليلة العيد. تذكّرتْ كيف كانوا يخرجون إلى الشوارع والحارات المجاورة حاملين الأواني الفارغة من طناجر ألمنيوم وأباريق وصوان وملاعق خشبية أو أي شيء يمكن أن تصدر عنه ضجّة عالية. كانوا يقرعونها أو يطبّلون عليها بقوة لإخافة الحوت حتّى يلفظ القمر الذي ابتلعه للتّو. تذكّرت جارتهم التي كانت تسخر من هذا الطقس الذي يمارسه النّاس في ليلة الخسوف. كانت تقول: «مجنون يحكي وعاقل يسمع. كيف سيخرج الحوت من الماء ويقفز نحو السماء ليبتلع القمر. هذه خرافة مضحكة». لم تعجبهم سخريتها من قناعاتهم الرّاسخة، لكنّهم التزموا الصمت درءًا لسخطها ولسانها السّليط. كان الأولاد المنغمسون في هذا الفعل الجماعي أكثر النّاس استياء منها، فدعوا عليها حتى يبتلعها الحوت في المرّة القادمة بدل القمر، وحينها لن يحرّكوا ساكنًا لإخافته كما يفعلون الليلة.

تذكّرتْ أيضًا كيف أنّ الجارة اختفت فجأة من الحيّ، فقالوا إنّ الحوت قد ابتلعها بالفعل لتجرّؤها على التشكيك بقدرته. حزن الأولاد عليها وشعروا أنّهم السبب فيما حدث، فقرّروا مساعدتها لأنّها كانت تعطف عليهم، ولطالما قامت بتحضير صينيّة هريسة ونادتهم ليأكلوا منها. تجمّع الأولاد والبنات في مكان مرتفع وراحوا يطبّلون ويزمجرون ويهدّدون الحوت حتى يعيد لهم الجارة. كانت متعبة وتمشي بتثاقل عندما مرّت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهم ووجدتهم على هذه الحالة. هتفت: «توقّفوا عن إصدار كل هذه الضجة! انتهى الأمر وامتثل الحوت لمطالبكم وأعاد القمر». نظروا إليها فزعين، ثم أصابتهم نشوة الانتصار. قال أحدهم: «الحمد لله.. لقد رضخ الحوت لتهديدنا وأعادك إلى الحيّ سالمة بعد أن ابتلعك». ضربت كفًا بكف وقالت ضاحكة بعد أن أدركتْ ما يحدث: «يا مهابيل.. كنت أزور أختي في الجَوفة، ولم يبتلعني الحوت ولا بطيخ مبسمر».

أجفلها صوت رنّة «الماسينجر». نظرت إلى الشّاشة وعرفت أنّ الاتصال من ابنتها الوسطى في كندا، مرّرت سبّابتها للأعلى على الشاشة وخرجتْ متثاقلة من سيل ذكرياتها الدّافئة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطوفان

تردّد الخبر على شاشات التلفزة العالميّة، وسرعان ما انتقل إلى وسائل التّواصل الاجتماعيّ. أمطار رعديّة في بلد آسيوي مغمور تؤدي إلى إغراق العاصمة التي رقدت بصمت في ظلمة بائسة نتيجة لانقطاع التّيّار الكهربائيّ. مقاطع فيديو قصيرة تنقل معاناة الناس جرّاء هذا الطوفان المباغت. لكن ما حدث في الجزء الجنوبي من البلاد حيث الانحدارات الشديدة حوّل الخبر المؤلم إلى خبر طريف. السيول الجارفة أخذت في طريقها جزءًا من مرافق السجن القابع هناك وسوره المسيّج بالأسلاك المكهربة، السجن الذي يضمّ خلف قضبانه أعتى المجرمين والقتلة. فجأة وجد المساجين الأفق مفتوحًا أمامهم، فهربوا وتوزّعوا في الوديان والتّلال المحيطة. قضى بعضهم خلال الهرب، لكن معظمهم نجا من هذه المغامرة الغريبة.

وصلوا إلى القرى القريبة فاغتصبوا النساء والأطفال وقتلوا الرجال والشيوخ. جرّدت الدولة حملة عسكريّة بعد أن فضحت الصحافة ما يحدث هناك؛ للقبض على المجرمين الفارّين، وإعادتهم إلى السجن بعد أن أصلحوا السّور وباقي المرافق. لكن الطوفان تكرّر في العام اللاحق، وعاث المساجين فسادًا في الأرض من اغتصاب وقتل وتعذيب وتشريد. تمكّنت الدولة من معالجة الخلل بسرعة وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

قبل موعد الطوفان في السنة اللاحقة عقد مجلس الحكم اجتماعًا لوضع حلول ممكنة للخروج من هذا المأزق، فاقترح بعضهم إخلاء القرى من السّكّان قبل وصول الطوفان إليهم، لكن الأهالي رفضوا الانصياع وفضّلوا البقاء لرعاية محاصيلهم وحيواناتهم. ثم اقترح آخرون إعدام المساجين لأنّهم مجرمون ويسبّبون المشاكل للدولة، لكنهم خافوا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منظمات حقوق الإنسان التي باتت تراقب الوضع الإنسانيّ عن كثب. عندما تجرّأ أحدهم واقترح وضع سدود في طريق الطوفان لتعديل مساره بعيدًا عن القرى المنكوبة، اتّهموه بالكفر والضّلالة والخروج عن الجماعة وطردوه من مجلس الحكم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نقوش على نوافذ محطّمة

(1)

كان مقتنعًا أن سبب شعوره بالسّوداويّة التي تربض على صدره مثل صخرة كأداء شيء آخر غير راتبه الضئيل الذي لا يكفي لشيء، ولا مديره الذي يرهقه في العمل ولا يسلم من غمزه ولمزه، ولا رائحة تعرّق الأجساد في الباص الذي يستقلّه إلى العمل، ولا العفن الذي يستوطن جدران منزله الرطب، ولا من موظف شركة الكهرباء الذي تحدّث إليه باستعلاء عندما جاء معترضًا على قيمة الفاتورة العالية جدًا، والتي لا تتناسب مع لمبة ٥٠ واط وتلفزيون ١٥ بوصة وثلاجة فارغة..

(2)

يسألها كل يوم قبل النوم: «متى العيد؟». فتردّ عليه بابتسامة وارفة: «غدًا.. العيد غدًا». يبتسم الطفل ثم ينام ليحلم بالعيد. حتّى كان يوم نهض فيه وقال لأمّه ممتعضًا: «ها قد جاء الغد ولم يأتِ العيد!!». عندها عرفت أنّ جنيّة البراءة قد زارته خلال الليل واستعادت منه ما منحته لسنوات طويلة.

(3)

وقف أمام قاضي البلديّة متخاذلا مرتعبًا، حاول أن يشرح موقفه لكنّ القاضي ظلّ متمسّكًا برأيه، وحكم عليه بتأدية خدمة المجتمع لستة شهور في دار العجزة؛ يساعدهم في قضاء الحاجة التي لا تتوقف طوال النهار أو الليل. تعلّم درسه بأصعب الطرق وامتنع عن قذف بقايا التفاحة التي يقضمها للطيور التي لا تجد ما تقتات به في ظل هذه النظافة والقوانين الصارمة.

(4)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان ينظر إلى قوس قزح ويتنهّد، يعبّ الهواء بنهم الغريق الذي دفعه الموج للأعلى في لحظة مباغتة: «ما أجمل قوس قزح! كيف له أن يكون بهذا الجمال وهو متقوّس؟ لو أنّه قوس مستقيم لكان أجمل».

(5)

بابتسامة ملتبسة لا يُفهم منها شيء يردّ أصحابه عليه كلما سألهم: «متى سينفجر الفضاء الأزرق؟ متى سيفقع الفضاء الإلكتروني؟». كان يطرح سؤاله همسًا في البداية، ثم راح يجاهر به عاليًا، حينها أدركوا أنّه لا يمازحهم بسؤاله الغريب، قالوا له: «الفضاء الإلكتروني ليس بالونًا ينفجر عند زيادة كمية الهواء فيه؛ هو حيّز افتراضي ليس له حدود ولا سعة معيّنة».

لم تقنعه الإجابة على أيّة حال، فقد رآها ضحلة للغاية لأنّه متيقّن أنّ لا وجود لشيء في الدنيا يمكن أن يتحمل هذا الهراء الذي يُنشر كل يوم في الأثير الإلكتروني.

(6)

كان يتابع الأحداث بتركيز عال، لم تشوّش عليه الأحاديث الجانبيّة التي استعرثت بشكل مفاجئ بين شاب وصديقته جلسا على يمينه، بل ظلّ محافظًا على انتباهه طوال الوقت. عندما انتهى الفيلم فكّر بالذهاب إلى إدارة السينما ليطالب بثمن التذكرة؛ لأنّه حضر فيلمًا بعنوان «أوهام البطريق الأزرق» ولم يظهر فيه أيّ بطريق بأيّ لون كان.

(7)

تذكرثه على الفور على الرغم من مرور ثلاثين عامًا. لم يتغير كثيرًا؛ ربّما الألوان فقط. كانت تمسح (البرندا) في شقّتها الأرضيّة التي انتقلت إليها بعد أن تزوجت ورحلت من الحي الشعبي المتهالك. انتفضت فجأة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأمسكت دلو الماء القذرة التي تعصر فيها الممسحة، وقذفت بمحتواها على الرجل انتقامًا من كل المرّات التي مرّ فيها من أمام بيتهم القديم ولم يتكلّف مجرد النظر إليها.

(8)

عندما انتبه الفنّان التشكيليّ إلى لون الصديد الذي كان ينزّ من جرح قديم أهمله لسنوات في يده اليسرى، لم يكترث كثيرًا وطاب له أن يظنّ أنّ كريات الدم الحمراء قد اختلطت بالبيضاء لينتج هذا الصديد الورديّ.

(9)

لاحظتْ أنّه دائم الشرود، لا ينتبه إلى ما يحدث في محيطه. تحتلّ وجهه نظرات غريبة لم تألفها فيه من قبل. فكّرتْ: «ربّما بسبب العمر الذي غافلنا دون أن نشعر به». عندما أدركتْ أنّه يقف تحت «الدّش» دون أن ينزع ملابسه، عرفت أنّه شيء آخر، وليس الزهايمر اللعين الذي أصاب والده ووالدته وشقيقته الكبرى من قبل.

(10)

عندما أصبح مدركًا لمفهوم المقارنة، انتبه لوجود إصبع سادسة في يده اليسرى، وهي أي الإصبع غير موجودة لدى أشقّائه وأقرانه. نقّل نظره بين يديه بتعجب وريبة. توجّه إلى أمّه باحثًا عن إجابة ترضيه، فأقنعته أنّ الله يحبه أكثر من باقي الأطفال لذلك منحه إصبعًا إضافيــة.

وعندما كبر الطفل قليلا وأزالوا الإصبع السادسة بعملية جراحيّة، أقنعته أنّ الله خلق الناس على صورته ومثاله وما غير ذلك فهو من عمل الشيطان.

(11)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاش بوهيميًا بلا ضوابط اجتماعيّة أو فكريّة أو حتّى أخلاقيّة. لا قيمة لأي شيء برأيه سوى الحريّة التي تجاوزت في قيمتها ومعناها الحياة عينها. شعر طويل ينسدل على كتفيه بفوضى فادحة، لحية منكوشة كأن كل شعرة فيها تخاصمت مع باقي الشعرات، ملابس متسخة وبالية، أظافر طويلة ورائحة جسده ظاهرة. عندما أعاد ترتيب حياته وأولوياته وقصد محل بيع الورد ليشتري لها وردة جوريّة حمراء، دعسته مركبة مسرعة، فارتطم رأسه بحافة الرصيف بقوة ومات من فوره.

(12)

كان مساءً شهيًا بنسيم منعش عندما عاد من غربته الطويلة رفقة زوجته الهولنديّة. كان يسحرها بحديثه المتدفّق المدفوع بحنين جارف عن بلده وشمسه ونجومه. عندما نظرث بقرف إلى الحاوية التي فاضت القمامة عنَ حوافها، تعلّل بالإضراب الذي شلّ حركة القمامة في البلد، وعندما أجفلها بوق السيّارة التي جاءت من خلفها، وهي تعبر الشارع قال إنّ السائق من جنسية أخرى وليس من أهل البلد، وعندما ارتفع صوته في وجهها لأنّها رفضت استقبال أخته بسبب تعب الرحلة، لم تقتنع بما أورده من حجج وعلل، وحملث حقيبتها التي لم تفرغها بعد وعادث إلى بلدها.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بيركهارت(3) مرّة أخرى

«اسمي إبراهيم بن عبدالله، تاجر من لبنان»، هكذا خاطب الرجل البدوي بعربيّة واضحة، لكن فيها لكنة خفيفة قدّر الأخير أنّها من باب اللهجات المحليّة التي تختلف في لبنان عن التي في صحراء الأردن. دفع له بالذهب حتى يرافقه لعبور سيناء إلى القاهرة، صحراء شاسعة لا يعرف مجاهيلها سوى البدو القاطنين فيها. عندما اقتربا من وادي موسى تحدّث البدوي عن الممر الصخري الضّيّق الذي يؤدي إلى الآثار القديمة في البترا. أثار فضوله إلى أبعد حد، لم يعرف بوجود هذه الآثار من قبل. طلب منه رؤيتها فعرّج به إلى السّيق. مشيا في الممر الصخري الشّاهق. كان إبراهيم مذهولا بهذه الصخور الورديّة على جانبيّ السّيق. وقف أمام الخزنة التي بدت له بشكل مفاجئ كأنّه انتقل من عالم إلى عالم آخر. أخذ نفسًا عميقًا ونقّل عينيه بين تفاصيل النحت العجيب فرأى ما لا يُرى: رأى النّحّاتين على هياكل خشبية وسقالات مربوطة بحبال غليظة، يضربون الصخر بأزاميل مفلطحة. مجاميع بشريّة على الأرض بأزياء قديمة فيها طابع يوناني خاصة بملابس النساء، فظهرت مفاتنهن على النّحّاتين الذين حاولوا تقليد هذه الخطوط المتعرجة والتّكورات الانسيابيّة عند الصدر والحوض. خلية نحل لا تتوقف عن الطنين، ولا أحد يقف في طريق الآخر. كانت الواجهة الصخرية تتشكّل شيئًا فشيئًا، وتأخذ ملامحها النهائيّة. فجأة سقط أحد النّحّاتين من على السقالة فتلقّفته الشبكة المنصوبة على الأرض تحسّبًا لهكذا طارئ. على يمين الواجهة، وبعيدًا عن الأعين، فتى في الرابعة عشرة يتحسّس فتاة في مثل عمره في أحد التّجاويف الصخرية. أطفال مكشوفو الصدر يلعبون في السّاحة ويتبارزون بسيوف خشبيّة، صاح أحدهم فجأة: «أنا الحارث الرابع ملك بترا». امرأة تجلس على الأرض وترضع طفلها. عبيد يحملون الماء من القناة القريبة إلى النّحّاتين والعاملين في السّاحة. راع يقود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أغنامه عبر السّيق ويمرّ من أمام الواجهة الصخريّة المنتصبة مثل قدر محسوم.

يأتي وقت الغداء فينزل النّحّاتون ويتحلّق الجميع في دوائر صغيرة حول أواني الطعام الذي فاحت رائحته ووصلت إلى أنف إبراهيم. يلتفت إلى اليسار فيرى أوروبيين كثرًا يقرؤون كتاب «رحلات في سوريّة والأراضي المقدّسة». يلتفت إلى اليمن فيرى شابًا بملامح أوروبيّة يقف خلف قطعة من القماش، شُدّت حوافها بقطع خشبيّة رقيقة، واتّكأ على محمل خشبيّ. يحرك ريشته بشغف واضح. يتأمل كثيرًا المشهد أمامه قبل أن يمدّ يده إلى اللوحة. بعض البدو يجولون في السّاحة بملابسهم البدويّة وجدائلهم السوداء وأسنانهم الذهبيّة. يأخذ نفسًا ويحبسه فيرى لقطات سريعة من فيلم (أنديانا جونز) الذي حمل عنوان «الحملة الأخيرة» حيث يبحث البطل عن الكأس المقدّسة، ويفوز الفيلم بجائزة الأوسكار.

طال ووقوفه على هذه الحال، فلكزه البدوي ليخرج من الحالة التي سيطرت عليه، وتابعا مسيرهما. لاحقًا كتب في مذكراته: «أما أنا فأستطيع أن أؤكد أنّ أيّ فنان مهما علت مكانته في العصر الحديث أو القديم لا يستطيع أن يدّعي أنّ بإمكانه الزيادة أو التعديل على هذا الأثر الجميل شيئًا لأنّه كامل». في الطريق غافل إبراهيم البدوي وعاد إلى البترا ليتابع ما حدث بعد ذلك، وأثناء تسلّله في السّيق انتبه إليه أحد الحرّاس فقبض عليه وأخذه إلى صاحب الشرطة الذي شك في هيئته ودوافعه وظنّ أنّه من جواسيس الرومان. اعترف تحت التعذيب أنه جون لويس بيركهارت من أوروبا وليس ابراهيم بن عبدالله من لبنان، واعترف أيضًا أنّه في مهمة تجسّسيّة لصالح الإنجليز. لكنّهم أطلقوا سبيله عندما قال لهم إنّه سيدوّن ملاحظاته في كتاب سينال حظوة عند القرّاء في أوروبا والعالم ويعيد مدينتهم إلى بؤرة الاهتمام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزمة مروريّة

كان قاصدًا مقرّ شركته التي تجاوز رأس مالها ملايين الدّنانير ذات صباح تشرينيّ بارد. يقود سيارته (الجيب شيروكي) السّوداء، ويمرّ كعادته كل يوم بدوّار الواحة قادمًا من خلدا حيث يسكن، متوجّهًا إلى الصويفيّة ليبدأ يومًا جديدًا من الأرقام والسّياسات والجدوى الاقتصاديّة والمبيعات وخطط التطوير إلى غير ذلك من التّفصيلات التي لا تنتهي. صوت فيروز ينساب بعذوبة مع مطر خفيف فاجئ الجميع حتّى الرّاصد الجويّ. انتبه إلى الذين يجلسون على رصيف الدوّار من العمال الذين ينتظرون من يأتي ليستخدم بعضهم. نظر إليهم باستغراب، وكاد أن يتسبّب بحادث مروريّ. تملّكه الفضول؛ لم يمضِ باتجاه الصويفيّة بل دار الدّوّار ليدقّق بما أثار استغرابه. كانوا كما هم؛ مستغرقين بضحك لا ينتهي. أسنانهم صفراء متباعدة، يلبسون قمصانًا خفيفة تهدّلت ياقاتها بعد أنْ بلّلها المطر. تفقّد محيط الدّوّار حتى يتبيّن إنْ كان هناك ما يستوجب كلّ هذا الضحك. لم يلحظ شيئًا مضحكًا. عندما اقترب من المخرج الذي يؤدي إلى الصويفيّة قرّر أنْ يعاود الكرّة. ضرب بيده على (التّابلو) بغضب: «لماذا يضحكون؟»، تساءل بصوت مرتفع. فجأة خطرتْ له فكرة مجنونة؛ أوقف سيارته ثم نزل منها ووقف بين السيّارات التي تكدّست وتعالتْ أصوات أبواقها. فتح ذراعيه، ورفع رأسه للأعلى واستقبل المطر. انتظر التّالي، لكنّ شيئًا ممّا توقع لم يحدث؛ لم تتهدّل ياقة قميصه، ولم تتباعد أسنانه البيضاء والأهم من هذا أنّه لم يضحك كما يضحكون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحلام منتهية الصّلاحيّة

كانت تحلم أن تصبح حمامة بيضاء؛ فتاة صغيرة لم تبلغ عامها العاشر بشعر أحمر وخدّين منمّشين وجسم نحيل، تبرز عظامه كلما انكشف شيء منه. تراقب الطيور عندما تهبط على الأرض، ثم تطير بخفّة ورشاقة. كانت متيقنة أنّها ستتمكّن من الطيران في يوم ما مثل حمامة ناصعة البياض. تركض وتحرّك ذراعيها بقوة ثم تقفز عاليًا من دون جدوى.

فكّرت ثم قرّرت أنْ تنام على شجرة التين في فناء الدّار كما تفعل الطيور. «ماذا تريدين أنْ تصبحي عندما تكبرين؟». تجيب: «أريد أن أصبح حمامة بيضاء يا أبي». يضحك بعفوية واستغراق عارمين. نالت منها إغفاءة قصيرة قبل أن ينقرها عصفور الدّوري في خدّها ظانًّا أنّها حبّة تين ناضجة. جفلت فاختلّ توازنها وسقطت عن الشجرة. بكت من شدّة الألم، فقد انكسرت عظمة الترقوة نتيجة السقطة الغريبة. منعتها أمّها من النوم على الشجرة بعد أن شُفيت تمامًا من الكسر. اعترضت: «لماذا يا أمّي؟ حالما أتعوّد النوم على الشجرة سينبت ريشي الأبيض، وتتحول يداي إلى جناحين قويّين ثم سأطير في السماء وأصل إلى الغيوم».

سكتت الأم عندما لم تجد ما تقوله، وتركت ابنتها تحلم؛ فغدًا ستبلغ وتتخلّى عن جميع أحلامها البريئة حالما تدرك بذاءة هذا العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عِرق النّسا

كانت تسمح لها أمّها باللعب في السّاحة التي أمام المنزل لساعات طويلة، فيأتي المساء ليكون التعب قد نال منها تمامًا من كثر ما قفزتْ وركضتْ. تغتسل وتتعشى، ثم ترقد لتصحو في اليوم التالي نشيطة منطلقة.

تؤكد الأم عليها كل صباح قبل أن تخرج للعب:

«لا تخلعي حذاءكِ حتى لا يؤذيك الشوك والحصى الدقيقة على أطراف السّاحة!».

في ذلك اليوم كانت الحرارة مرتفعة على غير العادة. فكّرت لو أنّها خلعت حذاءها لخفّ شعورها بالاحترار قليلا. نظرت إلى نافذة المطبخ فلم تزَ أمّها. «لا بدّ أنّها تنظف غرف النوم أو الصالون». وقفتْ في الزاوية البعيدة عن نافذة المطبخ، ثم خلعت حذاءها رافعة نظرها كل حين إلى النافذة. شعرتْ بشيء من الحرية والانطلاق فاقتربتْ دون أن تشعر من الأشواك التي تشابكت على الحافة الغربيّة من السّاحة. كتمتْ صيحة مباغتة عندما شعرتْ بشوكة تخترق الجلد الناعم لباطن قدمها. جلستْ على الأرض، وحاولت إخراجها لكنها لم تفلح. كانت قد انكسرت وظلّ جزء منها في الدّاخل. شعرت برغبة في البكاء لكنّها لم تفعل؛ لأنّها خافتْ من تقريع أمها وحرمانها من اللعب في السّاحة. لبستْ الحذاء بسرعة وعادتْ متلكئة إلى لعبها على الرغم من شعورها ببعض الألم.

على العشاء سألت الأم ابنتها:

«أنتِ على غير عادتك من التعب والإرهاق. هل لعبتِ جيدًا اليوم؟».

حرّكتْ رأسها بالإيجاب مع ابتسامة باهتة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الصباح نهضتْ قبل موعدها. كانت ليلة متعبة تخلّلها بعض الأحلام المزعجة يرافقها شعور بانقباض شديد. حاولتْ أن تتحرك فشعرتْ بالأشواك تخزها في غير موضع. فتحتْ عينيها فجأة لتصيح مذهولة مما ترى. كانت نبتة الخرفيش بأزهارها الأرجوانيّة التي انكسرت شوكتها في قدمها البارحة تنام معها في الفراش.

«ما هذا؟ من فعل هذا؟ من غير الممكن أن تكون أمّي».

رفعتْ الغطاء عنها لتجد أنّ الشوكة التي انكسرت في قدمها قد نبتت في ليلة واحدة لتصبح شجيرة صغيرة. حاولتْ أن تنزعها لكن الأشواك كانت تهاجمها بعنف كلّما فكّرت بشيء من هذا.

«يا إلهي! ما هذا؟ أنا خائفة. ماذا أفعل؟».

في خضمّ خوفها وارتباكها دخلت الأم الغرفة لتجد ابنتها على تلك الهيئة. فتحت فمها من هول ما ترى:

«لقد خلعتِ حذاءك ونغزتكِ شوكة الخرفيش، أليس كذلك؟».

استدارتْ الأم وكشفتْ عن ربلة ساقها اليمنى:

«هل ترين عروق هذه الشجيرات هنا وهنا؟ هذا ما يحدث لنا عندما لا نسمع كلام الأمّهات».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ميكانيكا الزواج

تجلّى التعب والإهمال على وجهها الجميل وعينيها الواسعتين. تتجلّد بالصبر وهي تدرّس ابنها ذا الخمسة عشر عامًا مادة الفيزياء. تشعر بصوتها يتلاشى وهي تشرح له درسًا في الميكانيكا؛ قانون نيوتن الثالث «لكل فعل رد فعل، مساو له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه». لطالما كان زوجها أفضل في المواد العلميّة، لكنّه منذ بدأ بقراءة هذه الرواية وهو مأخوذ ذاهل كأنّه متصوّف اهتدى إلى سر جديد من أسرار هذا الكون الفسيح. يتكوّم في أريكته الرماديّة، يقرأ صفحة ثم يرفع رأسه وينظر من النافذة وحاجباه متأهّبان للارتفاع أكثر وأكثر.

انتفضتْ في مكانها فجأة. انتصبتْ واقفة، ارتسمت نظرة مركّبة على وجهها اختلط فيها الغضب والندم والقهر والدموع. أسرعتْ إلى غرفة النوم فارتطمت قدمها «بالطربيزة» التي يضع عليها زوجها كوبًا كبيرًا من الشّاي بعِرق نعنع كل مساء، اندلق الشاي على الأريكة وتمدّدتْ حرارته إلى الزوج الذّاهب في ذهوله الصّوفيّ الغامض بعيدًا بعيدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألفة الوحدة

لم يستطع النوم في تلك الليلة الخانقة على الرغم من قيامه بإجراءات ما قبل الرقود كما يفعل كل ليلة؛ يشرب كوبًا من اللبن الرائب بعد أن يمزجه بالماء، ويمارس بعض التمارين الخفيفة، ويشاهد فيلمًا قديمًا بالأبيض والأسود حتى يشعر بموجة نعاس خفيفة، فيستسلم لها ويهيئ لها الأسباب لتتمكن منه. «ربّما كان السبب صوت الموسيقى القادم من البناية المجاورة»، هكذا فكّر قبل أن يقف وينظر من النافذة. «لا بدّ أنهم يحتفلون بنجاح ابنهم في الثانويّة العامة». أصوات الألعاب الناريّة تقطع رتابة الإيقاع كل حين وتضيء السماء بغتة ثم تختفي.

بدأ يتوتر لأنّ موعد نومه قد فات، وهذا يعني أنّ ليلة طويلة بانتظاره. راح يذرع الممر الطويل جيئة وذهابًا. فكّر أن ينتظر حتى ينتهي الاحتفال لكنّه لم يملك الصبر اللازم لهذا الحل المرهق للأعصاب. «ربّما أذهب إليهم وأطلب منهم خفض صوت الموسيقى، أو أرسل إليهم حارس البناية».

تعوّد الوحدة بعد أن طلّق زوجته وترك ابنتهما الوحيدة تعيش مع أمّها. مرّت السنون واشيبّ شعره، وجلس وحيدًا في شقّة صغيرة في حيّ هادئ، بعيدًا عن الشوارع الرئيسة هربًا من الضجيج والتلوّث السمعيّ. عندما خطرت له فكرة الاتصال بالشرطة، نظر من النّافذة ليرى سيارة شرطة أمام البناية المجاورة. شعر بالارتياح لأنّ هناك من قام بهذه المهمة البغيضة نيابة عنه، وربّما يكون مبعث هذا الارتياح أنّ هناك من يفكّر مثل تفكيره أيضًا. راقب ما حدث لاحقًا من نافذته. لم يفهم ما يراه بالضبط. كان يظنّ أنّ الشرطة ستنبّههم حتى يخفضوا صوت الموسيقى وينتهي الأمر. فجأة تكدّست سيارات الأمن العام في الشارع وارتفع الهرج والمرج. اقتادوا مجموعة من الأولاد والبنات بعد أن وضعوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(الكلبشات) في أيديهم، وأركبوهم في السيّارات. «ماذا يحدث؟ لا يمكن أن يكون هذا بسبب صوت الموسيقى العالي».

نزل إلى الشارع ليسأل الحارس. «وجدوهم يدخّنون الحشيش احتفالا بنجاحهم. الأهل تركوا الشقّة لابنهم وأصدقائه وذهبوا لزيارة أقاربهم». تابع المشهد مع باقي الناس المتجمهرين لمتابعة ما يحدث. رفع رأسه بسرعة ودقّق في ملامحها مصعوقًا عندما تعرّف على ابنته المراهقة من بين الذين أخذتهم الشرطة. التفتَ حوله وتسرّبَ من بين الحاضرين وعاد إلى شقّته وأغلق الباب خلفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قطط الشوارع

كان يمشي على غير هدًى في الشّوارع الخلفيّة للمدينة القديمة. لم يشعر بهواء المساء البارد الذي راح يهبّ ويتجاسر شيئًا فشيئًا، القميص الخفيف الذي ستر الجزء العلوي من جسمه لم يحمه من سياط البرد، ولم يدفع عن كليتيه ما سيسبّب له لاحقًا الألم والمعاناة. الغيوم الدّاكنة حجبت زرقة السّماء، وتشكّلت على هيئة وحوش ضارية بثلاث عيون وخمس أذرع. مركبة مسرعة تشقّ لحظة التّرقّب وتدعس قطّة إحدى عينيها مطفأة؛ فقدتها في صراع غير متكافئ مع جرذ عفيّ كان ينوي قرض قدم رضيعة، تركتها أمّها على بساط بال على المصطبة أمام عتبة الدّار، وانشغلت عنها في المطبخ. التصق جسد القطّة الهزيل بأسفلت الشارع المنحدر. تجمّع حولها أولاد الحيّ ساخطين شاتمين السائق الذي لم يشعر بما فعلت إطارات مركبته العالية.

فجأة بدأ المطر ينهمر بغزارة وسكبت الغيوم الدّاكنة كل ما تحمله من ماء دفعة واحدة، فتدفّقت المياه في الشوارع المتهالكة، وركض الأولاد وكل من صدف وجوده في الشّارع في ذلك الوقت إلا هو، ركضوا إلى منازلهم هربًا من غضب الغيوم التي أخذت تعربد وتبرق وترعد. احتمى في ظلّ سور عال حتّى تمرّ هذه اللحظة المشحونة التي بلّلت كل شيء في مدى حواسه الخمس. انتبه لتدفّق المياه في الشارع المنحدر، إذ اصطدمت بجسد القطّة النّافقة، وجرتْ في مسارين منفصلين ما لبثا حتّى عادا للالتقاء. ظلّ الماء يدفع جسد القطة الملتصق بالأسفلت حتّى انفصلت عنه، وفي اللحظة التالية تشوّشت الرؤية بسبب قطرات المطر التي علقت بزجاج نظارته السميكة. خلع نظارته بسرعة ليتابع ما سيحدث لاحقًا. قامت القطّة من موتها ونفضت جسدها المبلّل، ارتفع صوت موائها دلالة على خوفها وارتباكها، ثم قفزت بخفّة تحت الحاوية القريبة والتمعت عينها السّليمة عندما عكست النور القادم من أضوية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيارات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خفّة الكائن الجديد

كان يتجول في شوارع المدينة التي لا تنام بعد نهاية يوم عمل شاق، محلات «بقارمات» مضيئة، وعروض بهلوانيّة في السّاحات الصغيرة هنا وهناك. تزاحم لا ينتهي وأناس من مختلف الملل والثقافات يتناسلون بمجرد اللمس. راوده شعور غريب حول الناس في هذه المدينة، وتذكّر تقريرًا شاهده على إحدى الفضائيّات قبل أسابيع، حول الاكتئاب الذي أصبح سمة العصر. النّاس يتحاشون النظر في وجوه بعضهم بعضًا، ويفضّلون التواصل مع محطات الأخبار والشّاشات الذكيّة التي اتّضح أنّها ليست ذكيّة على الإطلاق، عند التعامل مع مشاعر الإنسان. زادت حالات الانتحار وانخفض مستوى النظر خمسًا وأربعين درجة عن العقد الذي سبقه، وهذا يعني أنّ النّاس لا يتحدّث بعضهم إلى بعض، وإنْ فعلوا فهم ينظرون إلى الأرض أثناء ذلك. أصبحت قيمة هذه الزاوية من مؤشرات الاكتئاب المرضي في العيادات النفسيّة. وتوقعوا أن يستخدم الفرد رقعة ليغطّي عينيه حتى لا تقعا على أيّ شيء، ويستخدم في المقابل جهازًا يحاكي ما هو موجود لدى الخفّاش حتى يتبيّن طريقه ولا يصطدم بالآخرين. كل هذا إمعانا في فرديّة الشخص ونرجسيته. الاكتظاظ والتّزاحم لا يعنيان أنّ الإنسان يعيش مع الناس بل يعيش بينهم، وشتّان بين الاثنين. وظهر عالم اجتماع خلال التقرير وقال إنّه لا داعيَ للأمراض والفيروسات حتّى يموت الإنسان، بل يكفي ألا يبارح شقّته لشهر واحد فقط حتّى تتسمم روحه ويغادر هذه الدّنيا. لم يقتنع بكل هذا الهراء وتمنى لو تنقضي الساعات بسرعة ليعود إلى زوجته وأطفاله.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلا عندما استوقفته «قارمة» مكتوب عليها «ابتسامة للبيع». كان قد سمع عن غرابة هذه المدينة شيئًا كثيرًا، لكنّه لم يكترث واهتمّ بعمله واجتماعاته التي أنهاها عصر اليوم، وأحبّ أنْ يأخذ انطباعًا مناسبًا عن المدينة قبل أنْ يغادرها، ولا يتشكّل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الانطباع إلا من خلال التسكّع في أحيائها وشوارعها. هناك محلات للمساج وأخرى لقراءة الطّالع وأخرى للجنس وأخرى للضحك وأخرى للتنفيس عن الغضب وأخرى للاسترخاء لكن محل لبيع الابتسامات! ماذا عساه يكون؟ وقف وفكّر مليًا قبل أن يدخل إلى المحلّ، لتستقبله سيدة أنيقة في أواسط عقدها الخامس بابتسامة عريضة وأسنان ناصعة البياض. قادته إلى غرفة بجدران خضراء وكنب جلديّة خضراء أيضًا. أجلسته على كنبة مفردة فغاص فيها حتى شعر بها تنطوي عليه. أراد أن يسألها عن الخدمة التي يقدمونها، لكنه فجأة شعر بكسل غريب في فكه فصمت وانقاد لهذه اللحظة الغريبة. شعر بعينيه تذبلان وجسده يسترخي، خاصّة مع أنغام الموسيقى الخافتة التي انبثقت من الجدران. استسلم لوسنة مباغتة قبل أن يفتح عينيه ليجد، السيدة تقف أمامه حاملة كوبًا من الشاي. شرب منه فشعر بنشاط وانطلاق كأنّ بطاريته شُحنت، فعادت إليه حيويته وحواسه. عندما فرغ من الشاي نظرت إليه: «نحن نعالج الاكتئاب بالابتسام». نهض من فوره وهمّ بالمغادرة وهو يحرّك رأسه يمنة ويسرة ليدلّل على عدم اهتمامه، لأنّه لا يعاني من الاكتئاب. قالت: «المرّة الأولى بالمجّان». تردّد قبل أن يغادر، ثم رجع عن قراره عندما قالت: «لن تخسر شيئًا، لمَ لا تجرّب؟!».

لم تكن سوى فتاة بفستان أبيض وابتسامة عذبة. جلست إلى جواره في كنبة مزدوجة. فعلت به كما تفعل الصّنّارة بالسمكة، فلم يستطع الفكاك من ابتسامتها التي شعر بها تأخذه إلى مروج فسيحة وأزمان بعيدة من الطفولة والبراءة والنداوة. تقافزت كائنات سوداء، لزجة وغريبة من على كتفيه إلى أرضيّة الغرفة، وهي تدمدم وتلعن بغضب هذا المكان القميء ومن فيه. شعر بخفّة غريبة كأنّه وُلد للتو، وانزلق من رحم فسيح ومضيء بذهن صاف وقلب يعمّره الأمل وتغمره السعادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجرد فضول

كان يهمّ بالخروج من (السوبرماركت) فرأى «بك أب» يتوقف بجوار الحاوية. نزل منه شاب أهمل هيئته وهندامه، وجاهر بإهماله من دون أدنى اكتراث. كان أحد هؤلاء الكثيرين الذين يتاجرون بالقمامة؛ يلتقطون البلاستك والمعدن ثم يبيعونه بمبالغ زهيدة. ما أثار اهتمام الرجل كان الطفلان اللذان جلسا في صندوق «البك أب». كلاهما دون الخامسة. لم تبدُ عليهما آثار النظافة، لكن أحدهما كان فضوليًّا أكثر من الآخر؛ ينبش الأشياء الموجودة أمامه بهمّة ونشاط. عينان زرقاوان وشعر أشقر لكن حرارة الشمس طوال النهار نالت من شقرته فأصبحت معتمة وقاتمة.

لاحظ من الرجل التفاتة إلى قمرة القيادة فرأى زوجة الشاب كما قدّر نائمة وقد أسندت رأسها إلى زجاج النافذة. يتحرك على حضنها طفل دون الثانية، وآخر ربما كان في الثالثة ينظر باستغراق إلى المارّة. ألف سؤال قفز إلى مخيلته لكنّ سؤالا واحدًا ألحّ عليه دون غيره. شدّ ياقة قميصه، وهمّ أن يقترب من الشاب ليسأله: «يا أستاذ! هناك سؤال يحيرني فعلا. أرجو أن تتحمل فضولي؛ لماذا لا تترك زوجتك مع الأطفال في المنزل وتخرج وحدك للعمل كما يفعل كل الناس؟».

تقدّم منه خطوتين بعد أن رفع الشّاب رأسه من الحاوية، فرأى عشّ دبابير قد احتلّ تجويف عينه المطفئة. تراجع في اللحظة الأخيرة لأنّه شعر بعدائيّة الدبابير التي قد تهاجمه في أيّ لحظة. وقف يراقب «البك أب» وهو يبتعد وشعر ببثرة جديدة متقيّحة تنمو في وجهه إلى جوار بثرات كثيرة كان سببها الفضول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقاحة

لم يكن الأب راضيًا عن هذا الزواج، لكنّه رضخ في النهاية لرغبة ابنته الوحيدة. يعرف الرجال كما يعرف أصابع يديه الناشفتين. قال لها: «هذا رجل أجوف لا يعرف قيمة النّاس». لم تفهم كلامه ولم تسمعه في المقام الأول. لم يمضِ عامٌ حتّى أصبح الزوج بلا عمل. قعد في الدّار بحجّة أنّ أصحاب العمل لا يقدّرون مواهبه، فقرّر أن يستقيل. اضطرّت الزوجة للعمل في المنازل من دون علم أهلها وأشقّائها حتّى تؤمّن بدل الإيجار، والاحتياجات الأخرى من طعام وتدفئة والأهم من هذا كلّه علبة سجائر من أغلى الأنواع لزوجها.

شعرت بالانزعاج والحزن عندما فقدت سلسلة الذهب التي كانت هدية الزواج من أبيها. بحثت عنها وقلّبت الدّار بلا نتيجة. حاولت أمّها التخفيف عنها عندما علمت بضياع السلسلة. في الأسبوع اللاحق زارت أهلها رفقة زوجها. بعد أن قاموا عن مائدة الغداء قال الزوج مزهوًا لحميه: «أبو سارة صاحب محل الذهب في وسط البلد يسلّم عليك».

لم يخبْ ظنّ الأب عندما ذهب إلى محل الذّهب ووجد السلسلة التي أهداها لابنته. اشتراها وأقنع زوجته أنّه وجدها في حوش الدّار ملمّحًا أنّها سقطت من ابنته دون أن تنتبه إليها.

عندما التقى الأب زوج ابنته بعد أسبوعين اشتكى الأخير من زوجته التي تكرّر إهمالها، وضياع السلسلة الذهبيّة للمرّة الثانية. انتفض الحمو في مكانه، ثم نظر إلى صهره نظرة ناريّة جعلته يتحوّل إلى هيكل أجوف ومتهالك تطايرت ذرّاته مع الهواء القادم من النّافذة القريبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نبوءة القصّة

كان شغفه في القصة القصيرة الشغل الشاغل في حياته إلى الدرجة التي تمنّى فيها بصدق، لو أنه ملم باللغة الروسيّة حتى يقرأ تشيخوف كما هو، من دون وساطة المترجمين الذين يشطحون أحيانًا في ترجمة غير دقيقة تُفقد النص شيئًا من ألقه وسحره. كان يردّد: «لا يمكن أن تكون كل هذه القصص الجيّدة لكاتب واحد، هذا إنتاج مجموعة من الكتّاب الموهوبين، نعم الموهبة ولا شيء سوى الموهبة يمكنها أن تفعل هذا السحر في البناء واللغة والثيمة والطرافة والصدق والشخصيات الساطعة».

بعد حين لاحظ أمرًا غريبًا؛ في البداية ظنّ أنّها مجرد مصادفة بغيضة، لكن بعد مصادفات عدّة عرف أنّ ما يحدث أبعد من هذا بكثير. احتار بما يجب عليه أن يفعل؛ هل يعتزل كتابة القصة القصيرة؟ أم يبحث عن حلّ آخر. لم ينم لليال وهو يفكر ويتدبّر. «ماذا يحدث؟ هل انقلب السحر على السّاحر؟ كلما كتبتُ قصّة جديدة ينعكس ما كتبته في القصّة على حياتي كأنّها مرآة تعكس ما يحدث معي أوّلا بأول. كيف ينقلب الخيال إلى واقع بهذه الدقّة؟! أمر محيّر فعلا».

راح يستعرض القصص التي انطبقت عليه تمامًا؛ مرّة كتب قصة عنوانها: حرب الـ «mbc2». وكانت تدور حول زوج يحبّ متابعة الأفلام على محطة «mbc2» وزوجة غيورة لا يعجبها أن يحدّق زوجها إلى الممثلات الجميلات (بالبكّيني). كانت تقول معلّلة رأيها: «هذه أفلام تدعو إلى فساد الأخلاق. لستُ مجبرة على متابعتها». ثم ترسم الجدّ على وجهها، وتخطف (الريموت كنترول) من يده وتنتقل إلى أخبار الجزيرة. تنظر إليه بطرف عينها فتجده ممتعضًا مما حدث، لكنّه يصمت ولا يقول شيئًا. ظنّ أنّها مجرّد ليلة سيئة ولن تتكرّر، لكن ما حدث لاحقًا كان عكس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توقعاته تمامًا؛ تفاقمت الأمور وبدأت الخروج عن السيطرة. وبعد شجار وصراخ وخصام، اتّفق الزوجان على أنْ يناما في غرفتين منفصلتين وكل واحد منهما يتابع المحطّة التي تعجبه.

وهذا ما حدث تمامًا بينه وبين زوجته بعد ثلاثة أسابيع من نشر القصّة..

مرّة كتب قصّة عن رجل رأى في منامه صرصارًا يمشي على الرخام الأبيض في شقّته، وظلّ لأشهر يصحو من النوم في منتصف الليل، ويشعل الضوء ليبحث عن الصرصار في الممرّ وفي الصالون بعد أن يزيح الأثاث ويزعج أهل الدّار والجيران. لم يتوقف عن فعل هذا إلا بعد أن هدّدته زوجته بترك المنزل، إن استمرّ على هذا الشكل من الهوس والجنون على حدّ قولها.

عندما تيقّن مما يحدث معه من تسرّب خيال قصصه إلى واقعه، قرّر أن يلعب لعبة شرّيرة. كتب قصة عن رجل ربح أموالا طائلة في اليانصيب، فطلّق زوجته التي كانت تناكده في كل ما يقول أو يفعل، وهاجر إلى أستراليا.

بعد أقل من شهر من نشر القصّة، ربحت زوجته في اليانصيب ربع مليون دينار، فطلبتْ الطلاق وبعد أن حصلت عليه، هاجرتْ لتعيش مع شقيقاتها في سيدني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجرة الزنزلخت

تزوجتْ وخرجتْ من القرية وطافتْ العالم رفقة زوجها وأطفالها الذين كبروا وانتظموا في الدراسة الجامعيّة. أصبح لديها الوقت الكافي لتفكّر بأشياء كثيرة نسيتها، وأشياء أخرى ما زال الحنين يجلب ذكرياتها البعيدة.

دخلتْ ساحة المدرسة، ولم يسألها أحد عن حاجتها عند البوّابة. ربما انشغل أحدهم بأمر طارئ. لطالما كانت بارعة بإيجاد الأعذار للآخرين. وقفتْ هناك تتفحّص المكان بعد غياب طويل. غافلها شعور غريب ومباغت. أمسك الهدوء بخناق المشهد بتجبّر واضح، كأن المدرسة تحوّلتْ إلى مدينة منكوبة خلت من سكّانها. لكنّ هذا السكون لم يستمرّ طويلا. ما إن قُرع الجرس حتّى علا الهرج والهمهمة والضحكات المنفلتة من عقال ما يجوز وما لا يجوز. ظهرت أفواج البنات بالمريول الأخضر، يتدافعن بصخب وعنفوان. حدّقتْ فيهنّ واستمعتْ إلى أطراف ثرثرتهن التي أعادتها أكثر من ربع قرن للوراء.

أخذ الشعور الغريب ينمو ويكبر ويلحّ عليها. حاولتْ أن تبحث عن سبب له؛ نظرتْ حولها فأدركتْ أنها تقف في وسط السّاحة تمامًا. فجأة استعادتْ أمرًا غاب عنها. التفتتْ حولها بجزع وقلق مما دفع البنات القريبات منها للنظر إليها. قالت بصوت مشحون: «أين شجرة الزنزلخت؟ كانت هنا تمامًا حيث أقف». توجّهتْ إليها إحدى البنات: «قلعوها منذ سنوات بحجّة أنّها تعيق النشاطات الرياضيّة في السّاحة. أمي انزعجت من هذا الأمر أيضًا».

أغمضتْ المرأة عينيها بقوّة، كأنّها تحاول استحضار الشجرة وظلالها، ووجوه من جلسوا تحتها وتبادلوا الأسرار والضحكات والتّنهّدات. تيبّستْ في مكانها ومدّتْ ذراعيها، فنمتْ أصابعها وتشعّبتْ ثم تشابكتْ وظلّلتْ

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على البنات اللواتي اتّكأن على جذعها، وحفرن قلوب الحب والأحرف الأولى من أسمائهنّ في لحائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سبعيني

كان يراه كل يوم في طريقه إلى العمل في الموضع نفسه، جالسًا على طرف الرصيف بسنواته السبعين -كما قدّر- ولحيتة الشعثاء وظهره المحدودب ونظراته التّائهة ومعطفه الكاكي الذي يشبه معطف ديستوفسكي، معه كيس كبير من النايلون الأبيض يضع فيه شيئًا ما. توقّع أن يكون مما يلتقطه بعضهم من الحاويات من معدن أو «بلاستيك». سيطر عليه هاجس ليتوقف ويتحدث إليه. كان يؤجل ويسوّف حتّى كان يوم وجد نفسه يتّجه نحوه مباشرة، بعد أن ركن سيارته المهترئة على يمين الشارع. اقترب منه ومدّ إليه دينارًا، ابتسم السبعينيّ فظهرث أسنانه البيضاء المتراصة واستقام ظهره وتشذّبت لحيته واختفى المعطف البالي لتظهر بدلا منه سترة أنيقة تشبه سترة همنغواي المفضّلة. عندما انتبه السبعيني لأسنان الرجل المنخورة مدّ يده إلى الكيس وأخرج بندقية صيد، ركّز فوهتها تحت ذقنه وأغمض عينيه وهمّ بالضغط على الزناد. خرج الرجل من لجام المفاجأة التي سيطرت عليه ومدّ يده ليخطف البندقية فانطلقت رصاصة بالخطأ وفجّرت رأسه. أعاد السبعيني البندقية إلى الكيس بعد أن مسحها بخرقة نظيفة ثم نهض ونظر إلى جثة الرجل الهامدة: «ساذج آخر.. ظنّ أني سأطلق النار على نفسي كما فعل همنغواي».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباص البرتقالي

انتظر باصَ المدرسة على جانب الشّارع عند نهاية الزّنقة الضّيّقة التي تقود إلى منزله. اليوم الأول له في الصّفّ الرابع الابتدائي. ظلّ يترجّى ويتوسّل أمّه حتى قبلت تسجيله، ودفعتْ رسوم الباص. لم تكن المسافة طويلة بين المدرسة والمنزل، لكن هناك شارع عريض مزدحم بالسيّارات يفصل بينهما، ربما هذا ما دفع الأم للقبول وشجّعها على تلبية طلب الابن الحالم، الذي يريد أن يجرّب ركوب الباص البرتقاليّ. يرى الأطفال ينزلون منه ويصعدون إليه، ويغبطهم على حظّهم الوافر. ربّما اللون وربّما ملمس المقاعد وربّما لطف المعلمة المرافقة وابتسامتها ما دفعه لهذه الحماسة والشغف لركوب باص لونه برتقاليّ.

حمل حقيبة المدرسة على ظهره ووقف بثبات والتفت يمينًا ويسارًا بترقب وقلق واضحين:«ماذا لو أن السائق قد نسيني؟».

هواء الصّباح فيه برودة الخريف الذي أطلّ برأسه منذ أيّام قليلة فقط. يضع بلوزة من الصوف على كتفيه حتّى إذا اشتدّت الشمس واستشعر الناس دفئها خلعها ودسّها في حقيبته. زاد توتره عندما صار في يقينه أنّ السائق قد نسيه بالفعل.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يعود إلى المنزل أم يمضي إلى المدرسة؟ بعد تردّد يمّم باتجاه المدرسة كئيبًا متثاقلا. في اللحظة التي وصل فيها الشارع العريض، لمح الباص عند المنعطف التّالي متوجهًا إلى الجهة التي يسكن فيها. استدار وركض بأقصى سرعته، ليعود إلى حيث كان واقفًا مع أنّه لم يتبقَّ عليه سوى اجتياز الشارع حتى يصل إلى بوابة المدرسة. تعثّر وسقط على ركبتيه، تحامل على نفسه ونهض موجوعًا آنًّا من الألم.

رفع يديه ولوّح للسائق حتّى ينتبه له، لكنّه لم يفعل فقد كان ينظر في الاتجاه المعاكس. أصبح وجهه غير قابل للتفسير، وهو يرى الباص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتجاوز المكان المتّفق عليه للركوب، ويبتعد باتجاه الشّارع العريض. حمل دموعه المالحة وحقيبته الثقيلة وتوجه إلى المدرسة، وهو يشتم ويلعن الباص البرتقالي ذا المقاعد المريحة والستائر التي تحجب شمس الظهيرة، والأهم من هذا كلّه شتم السائق والمدرسة التي وظّفته.

في اليوم التالي، وقف في المكان المعتاد وانتظر الباص. رآه مقبلا من بعيد فشعر بشيء من التّوجّس. لم يعرف سبب هذا الفتور تجاه فكرة الباص البرتقالي التي كانت تسحره لغاية الأمس، كلما انقضت دقيقة أخرى، ازداد اضطرابه وقلقه. فتح عينيه على اتساعهما، مركّزًا في القادم نحوه؛ فرأى كتلة برتقاليّة تتدحرج على الشّارع، وحالما اقتربت أكثر اتّضحت معالمها وتحوّلت إلى فم برتقالي مفتوح على اتّساعه يبتلع كل ما يقف في طريقه من سيّارات وطلاب ومارّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحلام صيف جاف

كان يمشي في وسط البلد، عندما بدأ المطر بالانهمار غزيرًا صاخبًا. تبلّل شعره الخفيف بسرعة، وتسرّب الماء إلى ملابسه الدّاخليّة. لم يحاول الاحتماء بل استمرّ على الخطوة عينها. «لم يذكروا شيئًا من هذا القبيل في النشرة الجويّة»، فكّر دون أن يلعن الرّاصد الجويّ؛ اعتبرها مفاجأة سارة من السماء التي بدت بزرقة صيفيّة ناعمة. برك صغيرة تجمّعتْ هنا وهناك. بدا صوت ارتطام المطر بمظلات الدّكاكين مثل صوت مطحنة القهوة. همهمات خافتة سرعان ما تحوّلت إلى ضحكات دافئة. أخيرًا وصل إلى المكتبة التي يقصدها كل يوم لقراءة فصل من كتاب «أحلام صيف جاف». قال لصاحب المكتبة الذي جلس على كرسي متهالك تحت المظلّة: «ما هذا المطر المفاجئ؟». نظر الرجل إليه باستغراب ثم نظر إلى السماء. قالَ وهو يهزّ رأسه بقنوط ويعيد سيجارته إلى طرف فمه: «الله يسمع منّك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاتبة القصص

كانت تكتب قصصًا جميلة ومؤثرة وناجحة. الناشر راض عن مستواها الفنّيّ، وسعيد بالمبيعات التي حقّقت أرقامًا معقولة جدًا. بيضاء نحيلة في منتصف عقدها الرابع، وفيها مسحة حزن تحدّ من انطلاقها كلما فكّرتْ بالتّخلّي عن تحفّظها. قال لها النّاشر ذات يوم: «ما زالت القصّة الرومانسيّة التي تكتبينها تقليديّة من دون روح، على عكس القصص الأخرى».

حيّرتها عبارته هذه. فكّرت طويلا: «ماذا يقصد؟ لا أراها تختلف عن باقي القصص. شخصياتها حيّة وأحداثها مختزلة وموضوعها واضح. لو أعرف ماذا يقصد بالضبط!». عندما ترسل له قصة رومانسيّة عبر البريد الإلكترونيّ تشعر بالارتباك وتنتظر الإجابة ورد الفعل، لكنّه يكتفي بعبارة مقتضبة تفيد أنّه قرأ القصّة.

Telegram:@mbooks90

التقاها بعد أسبوعين في احتفال الدار بمرور خمسين عامًا على تأسيسها. كانت تسرّح شعرها بطريقة متحفّظة وترتدي ملابس متحفّظة وتتحدث بتحفّظ. قال على سبيل المزاح: «لن ننشر قصصًا رومانسية قبل أن تدخلي في علاقة جادة مع أحدهم حتى تعرفي كيف يكون شعور العاشق الحقيقي».

«إلى هذا الحدّ كانت القصّة سيئة؟!»

«ليست سيّئة، لكنّها نمطيّة ومكشوفة».

لم يصدمها ما قاله، بل على العكس؛ شعرتْ أنّها كانت بحاجة لسماع ما قاله. هذا مجال لا يحتمل المجاملات والتوجيه الخاطئ. لطالما نظرتْ بعين الجدّ إلى عملها ووضعته في المقام الأول. تفحّصت من حولها، فعرفت البون الشاسع بين لبسها ولبس باقي السيدات والفتيات في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحفلة، وكذلك الأمر بالنسبة للمكياج والشعر. عرفتْ بغريزة الكتابة التي تملكها ما يجب عليها فعله وهو التّخلّي عن أسلوب الحياة الذي اختارته تكريسًا لقصصها والابتعاد قدر الإمكان عن الدّخول في علاقات مخيّبة للآمال كما قالت ذات يوم. استشارت بعض الصديقات الملمّات بشؤون الموضة، فدللنها على ما يناسب لون بشرتها وقوامها.

في اليوم الأول شعرت أنّها تسير عارية، وفي اليوم الثاني كادت تتعثّر وتقع، وفي اليوم الثالث فكّرتْ بترك الأمر برمّته، وفي اليوم الرابع عدلتْ عن فكرة الاستسلام، وفي اليوم الخامس أدركتْ أنّ لا أحد ينظر إليها، وما هي سوى أفكارها التي تضيّق عليها، وفي اليوم السادس تخفّفتْ من حرجها، وفي اليوم السابع كانت تمشي بثقة وهدوء واتزان.

تعرّفت عليه في مقهى صغير في الحيّ الذي تقطنه؛ مايكل مهندس طاقة، شابّ وسيم متماسك البنية ولطيف. أسرها بحسن حديثه وعينيه العسليّتين وقبلاته الرطبة. لم يرتبك جسدها الغض فحسب بقوته وفحولته، بل إنّ روحها وعاداتها وثوابتها كلّها تغيّرتْ. لم تصدّق أن كل هذا يحدث معها في هذه الفترة الوجيزة. فكّرتْ: «لماذا يشعر الناس بالاكتئاب هنا؟ الشمس ليست كل شيء، كما أنّ الإنسان يستطيع أن يصنع شمسه بيده».

في الأسبوع الخامس ذكر لها أنّ عمله انتهى، وسيغادر ستوكهولم ليعود إلى شركته في غوتنبرج. اعترف أيضًا أنّه متزوج ولديه طفل، وأنّه قضى معها أوقاتًا طيّبة.

مثل هذه الأمور كانت ترد في قصصها، لكنّها لم تتقبّل أن تحدث معها. شعرتْ بالحزن والغدر والاكتئاب والألم في شتاء ستوكهولم السّوداويّ. لم تنظر من النافذة ولم تخرج من الشقّة ولم تردّ على اتصالات الناشر ولا رسائله الإلكترونيّة وفكّرت بترك الكتابة؛ لأنّ كل القصص التي كتبتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول الألم، تحوّلث في غمضة عين إلى فراشات بألوان زاهية مقابل هذا السّواد الذي هبط على صدرها، وظلّ يضغط عليها حتّى تحوّلت إلى نقطة سوداء على أول السّطر في قصة ما زال حبرها الأسود يتجمّع في دواة روحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفة احتجاجيّة

كان خبرًا مقتضبًا نشرته إحدى الصحف المحليّة حول هروب ديناصور صغير من المتحف قبل يومين، لكن ما حدث لاحقًا تجاوز كل الحدود. فضائيّات، مراسلون، مصوّرون، وصحفيّون هرعوا إلى البلدة الصغيرة التي فقدت أحد ديناصورات متحفها في ظروف غامضة. أخصّائيّون في علم الاجتماع الحيواني ظهروا على الفضائيّات لمحاولة فهم ما حدث، وتقديم تصوّر منطقي للاحتمالات الممكنة.

ابتدأتْ عمليات البحث وتمشيط الغابات القريبة، لإيجاد الديناصور المسكين الذي لا بدّ أنّه يشعر بالجّوع والعطش والخوف والوحدة. مسيرات احتجاجيّة ومظاهرات تطالب بمحاسبة المقصّرين، كما بدأت حملات التّعاطف مع الدّيناصور الضائع تأخذ منحًى متصاعدًا أدّى إلى تفاقم النقمة على الحكومات والمجتمع المدني الذي لم يستطع بسائر مؤسساته العريقة أن يحمي ديناصورًا مسكينًا. عندما زاد الأمر عن حدّه ظهر مسؤول حكومي رفيع على إحدى الفضائيّات، وقال بأنّ ما حدث مجرد سوء فهم بسيط، وذكّر الجماهير النّاقمة بأنّ الديناصورات انقرضت منذ آلاف السنين، وأنّ الديناصور المقصود في الخبر الذي نشرته الجريدة المحليّة هو اسم كلب القيّم على المتحف، كلب مسنّ ويشرف على الموت، فأطلقه صاحبه حتّى يتسلّل إلى الغابات القريبة ليموت هناك، حيث وجده قبل عشرين عامًا. لكنّ الجماهير لم تقتنع بهذا التوضيح واعتبرت الأمر من باب التّضليل الذي تمارسه الحكومات على شعوبها بشكل ممنهج، واستمرتْ في تنظيم المسيرات الاحتجاجيّة حتّى ظهر الديناصور الضائع على شاشات الفضائيّات، وقد عاد إلى المتحف حيث ينتمي، ويتمتّع بأوضاع إنسانيّة أو ديناصوريّة لائقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ذاكرة الماء

كانت تنتظر باص المدرسة كعادتها كل يوم لتستقبل أولادها بعد يوم مدرسيّ طويل. يشعرون بالحماسة عندما يرونها بانتظارهم. يلوّحون لها وهم يتقافزون فرحًا وإثارة. تترك الطبخة على النّار وتخرج لملاقاتهم حتى لا تخيّب ظنهم. كان الباص مسرعًا عندما اقترب منها، فظنّت أنّ السائق قد سها ونسي أطفالها فتقدّمت خطوة في حركة غير محسوبة ولوّحت له بجزع، فاصطدم رأسها بالمرآة البارزة ووقعت على الأرض مغشيًا عليها.

أقسم السائق أنّها ركضت باتجاه الباص مثل المجنونة، لكنّ الشرطة لم تصدقه وطلبت منه الحضور إلى المركز الأمني بعد أن يوصّل الأولاد إلى منازلهم. في المستشفى ضمّدوا الجرح في رأسها وتفقّدوا الكدمات في جسمها. قالوا إنّها محظوظة لتخرج من هكذا حادث بجرح سطحيّ في جبهتها وارتجاج خفيف بالرأس وبعض الرضوض. تفقّدوا ما هو مسجّل على الكاميرات التي تغطي الشارع وتأكدوا من صدق السائق وأطلقوا سراحه.

لقطات سريعة تداهمها وهي مفتوحة العينين؛ مجرى ماء متعرّج وجاف تنتشر على حوافه وفي وسطه صخور ملساء قاسية. الأولاد في رحلة مدرسيّة ويستمتعون بوقتهم، وهم يجلسون على الصخور القاسية لتناول وجبة خفيفة. ضحكات وابتسامات سخيّة هنا وهناك، الباص يقف بعيدًا لكنّه في مدى النظر. تغيّر الطقس فجأة، وغابت الشمس خلف الغيوم الدّاكنة التي ظهرت فجأة. تلاشى الشعور بالانطلاق وحلّت مكانه سوداويّة بغيضة. ظهرت التجاعيد على وجوه الأولاد انقباضًا من هذا التّبدّل الغريب. أشارت النشرة الجوية إلى شيء من هذا القبيل، وإمكانيّة تشكّل السّيول المباغتة في الوديان والمناطق المنخفضة، لكنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحدًا لم يأخذ ما قاله المتنبئ الجويّ على محمل الجد. أبرقت ثم أرعدت ثم شعروا ببعض قطرات المطر تنزل خفيفة متباعدة. نظروا في وجوه بعضهم بعضًا للتعبير عن خيبة أملهم. سمعوا صوتًا غريبًا يشبه هدير الماء المتدفق. كان الصوت يقوى شيئًا فشيئًا. التفتوا خلفهم عندما علا صراخ المعلمين والمعلمات طالبين منهم الخروج من مجرى الماء، والتّوجّه إلى أعلى مكان يمكن أن يصلوه. بعضهم لم يدرك الخطر المحدق بهم إلا عندما جرفهم التيار بقوة فسقطوا بعنف واصطدموا بقوة بالصخور القاسية التي كانوا يجلسون عليها قبل قليل.

كانت تجفل وتسدّ أذنيها حتى لا تسمع صوت الاصطدام القوي، الذي يتبعه فقدان الوعي ثم الغرق. حانت منها التفاتة سريعة نحو ساعة الحائط، فأدركت اقتراب موعد عودة الأولاد من المدرسة. خرجت من المستشفى راكضة لاهثة حتّى لا تتأخر على أبنائها الثلاثة الذين أخذهم السيل في ذلك اليوم المشؤوم قبل أربع سنوات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصامتون

خرج من السينما مكفهرّ الوجه مضطرب الحواس. شعور ثقيل سيطر على حواسه وأجبره على الدخول في حالة من السوداويّة المؤلمة. كان يمشي في وسط الشارع دون أن يلتفت للسيّارات، التي تعالت أصوات أبواقها وملأت الفضاء ضجيجًا مقرفًا. أخرج السائقون أيديهم ولوّحوا بها على سبيل التهديد، وارتفع صوت بعضهم بشتائم فاضحة. وقف الناس على الرصيف لمتابعة هذا المخبول الذي يعيق حركة السير. بدأ المطر بالنزول الخفيف في هذا المساء التشرينيّ البارد. نسي معطفه الثقيل في قاعة السينما، وخرج بقميص خفيف لا يقيه البرد أو البلل. فجأة رفع رأسه فرأى الأضواء والسيارت والناس على الرصيف، وشعر بالمطر يبلّل شعره ووجهه وظهره. حاد عن طريق السيّارات ومضى إلى غرفته المستأجرة.

كان الفيلم الكوري الذي تابعه في السينما بعنوان (الصامتون). يدور الفيلم حول معلم يعاني من حالة نفسيّة صعبة بعد فقد زوجته. يترك ابنته عند أمّه ويلتحق بعمله الجديد في مدرسة للصم في مدينة بعيدة عن محلّ إقامته. يدرك بعد حين أنّ أشياء غريبة تحدث في المدرسة، والأهم من هذا أنّ الجميع متواطئون بإخفائها عنه. تتوالى الأحداث ويصل المعلم إلى أنّ بعض المعلمين بمن فيهم المدير يعتدون على الأطفال نفسيًا وجسديًا وجنسيًا. يقرّر أن يخرج عن صمته وفضح ما يحدث. ينجح بمسعاه بعد تلقّي مساعدة من إحدى العاملات في مجال حقوق الإنسان. لكن ما حدث لاحقًا كان مخيبًا للغاية، فقد كانت العقوبات غير رادعة، ولا تتناسب مع طبيعة الحدث.

كان يجلس في الغرفة وقد تملّكه غضب شديد عندما لمعت أمام عينيه شاشة السينما (هذا الفيلم مبني على أحداث حقيقيّة). بحث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الإنترنت وعرف جذور القصة، وأسماء المتورطين في هذه القضيّة وكذلك أسماء الضحايا. كانت صورة الفتاة التي تعرضت لاعتداء جنسي تؤلمه كثيرًا. في غمرة المشاعر المتضاربة التي كانت تتعاون على تحطيم صموده في وجه هذا العالم البشع، تيقّن من ضرورة فعل شيء ما للخروج من هذه الحالة الصعبة.

لم يستوعب ما قالته المضيفة على الخطوط الجويّة الكورية، لكنه هزّ رأسه وابتسم ابتسامة غبيّة. قرّر السفر إلى مقاطعة جوانغجو في كوريا الجنوبية لمقابلة هذه الفتاة التي لا تفارق خياله. شعر أنّ مقابلتها قد تجلب له بعض الراحة. لا بدّ أنها كبرت الآن وأصبحت فتاة ناضجة فأحداث الفيلم تعود إلى عام ٢٠٠٥. لم يكن الأمر عسيرًا للوصول إلى مكان سكنها فالصّحافة تستهويها هكذا قصص.

احتاج إلى بعض الوقت ليرتّب أفكاره حتى لا يفزعها، فالفكرة بحد ذاتها غريبة. جلس في محل (ماكدونالدز) في الحيّ الذي تقطنه ليتناول وجبة سريعة. دخلت عائلة مكوّنة من الزوجة والزوج وفتاتين صغيرتين. كانت الزوجة منطلقة وتلاطف الصغيرتين وتمطرهما بابتسامات دافئة، الزوج التصق بزوجته ووضع يده على خصرها وقبّلها كل حين على رقبتها، فتبتسم له بدلع وتلكزه بكوعها برفق. تركهم الزوج جالسين إلى الطاولة وذهب ليطلب ما يأكلون. بدا أنّه تحيّر بأمر ما فنادى على زوجته باسمها. نظر إليها الرجل ذو الملامح شرق أوسطيّة، والذي يجلس إلى الطاولة المجاورة. ابتسمت له وهي تعبر من أمامه لتصل إلى زوجها. عاد إلى (الإنترنت) ليتأكد له أنّها هي نفسها، الفتاة التي تكبّد عناء الرحلة لمقابلتها. استغرب من هذه الصدفة التي تشبه كثيرًا من صدف الحياة الغريبة. تردّد قبل أن يقوم بخطوته التالية، ثم نهض، وبخطى واثقه توجّه إلى الباب واستقلّ التاكسي للذهاب إلى المطار. في الطائرة كان يفكّر بترتيب حياته الجديدة بعد أن تجاوز محنة صمته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغربان وشجرة الكينا وأشياء أخرى

لم يعد هناك مفر من الأمر. تجمّع أهل الحيّ في الشارع ليراقبوا عمّال البلدية وهم يقومون بعملهم. انقسم أهل الحيّ إلى فريقين: الأول كان متحمسًا، والثاني علت وجهه قتامة غريبة.

في الشتاء الماضي هطل الثلج غزيرًا وتراكم على الشوارع وأسطح المنازل، وتسبّب في حوادث كثيرة. ظهر مسؤول من البلدية وصرّح بتأثر مصطنع بأنّ الأحوال الجويّة كشفت مقدار البؤس الذي تعاني منه بعض العائلات. تحوّل هذا الفيديو إلى (تريند) على وسائل التواصل الاجتماعي، وأظهرت التعليقات السّاخرة مقدار الغلّ الذي يشعر به المواطن على الحكومة التي لا تدرك تفاصيل كثيرة معروفة للجميع.

تراكم الثلج على أغصان شجرة الكينا في الحيّ، ولم يشعر أحد بمعاناتها. الشجرة التي ظلّلت الشارع، ولعب الأطفال تحتها، وحفر العشّاق الأحرف الأولى لأسمائهم في جذعها لم تعد تحتمل أكثر مما احتملت. قاومت في المواسم السابقة أمّا اليوم فهي عاجزة ويائسة، فكميّة الثلج أكبر من طاقتها بكثير. انكسر أحد فروعها الثلاثة وعطّل حركة الآليات والنّاس في الشّارع. وعندما جاء الربيع وعادت الغربان التي تقف على الشجرة بأعداد كبيرة، لم تجد متّسعًا لها كلّها لكنّ سعادتها بالعودة غطّت على كل المصاعب.

في الشتاء اللاحق انكسر الفرع الثاني، وأدّى لقطع الكهرباء عن الحيّ، وعندما عادت الغربان في الربيع أثارت ضجّة صاخبة تعبيرًا عن حزنها على ما حدث. تذمّر بعض أهل الحيّ من شجرة الكينا الباسقة التي تؤثر على سير الحياة في الشتاء، لأنّها هرمث ولم تعد تقوى على ثلج الشتاء، وقدّموا شكوى للبلدية التي قرّرت إزالتها؛ لأسباب تتعلق بالسّلامة العّامة. كان منظرًا يحبس الأنفاس؛ حالما أداروا المناشير التي ستتولى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المهمة، وأدركت الغربان ذلك حتى انتفضت وراحت تهاجم عمال البلدية بمناقيرها الحادة، بل إنّ بعضها حمل الحجارة الصغيرة بمناقيرها، وقذفتها باتجاه العمّال. وقف أهل الحيّ مبهوتين من ثورة الغربان المباغتة، وتراجعوا للخلف حتى لا يصيبهم أذى. توقّف عمّال البلدية عن تنفيذ المهمة، ريثما يجدون طريقة أفضل. عادوا في اليوم التالي وبحوزة بعضهم بنادق صيد. أطلقوا النار على الغربان التي أجفلها الصوت، فسقط بعضها وطار البقية بعيدًا عن مدى البنادق.

منذ ذلك الحين تخلّت الغربان عن ألوانها الزاهية التي كانت تختال بها، ولبست ثياب الحداد على شجرة الكينا التي لم يبقَ منها سوى جزء يسير من الجذع الثخين المتشبّث بالأرض. تقف عليه وتنعق بوجه عمال البلدية وأهل الحيّ الذين وقفوا متفرجين دون أن يبادروا لإنقاذ الشجرة المسكينة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حرائق العصور الوسطى

كان يثير الرهبة في نفس من يصادفه على الرصيف حيث يقف كلّ يوم، ليس بسبب هيئته الرّثّة ولا بسبب العبارات التي يكرّرها بصوت مشحون بالقلق والخوف، ولا بسبب الهالة القاتمة التي تشعّ منه، بل بسبب حركاته المباغتة التي يفاجئ بها المارّة، فينتفض الواحد منهم خوفًا وارتباكًا بعد أن يكون قد أمن لمحيطه واستكان له.

عينان مكحّلتان، ووجه متكوّر، ولحية منكوشة، وشعر ملتفّ طغى بياضه على سواده، نظرات تائهة وهيئة دراويش من الصعب أن يخطئها الرّائي. تعوّد طلاب المدارس وجوده في البقعة عينها كل صباح. يمرّون به فيسمعونه يتمتم بكلام ما، يضحكون عليه ويمضون إلى مدارسهم. قد يصمت ليوم أو يومين قبل أن يفاجئ إحداهنّ بحركة مفاجئة وعبارة ناريّة: «زوجك ينام في النهار». تفتح عينيها دهشة وقلقًا، وتأخذها الوساوس إلى أبعد حدّ. «ماذا يقصد؟ ماذا يقصد؟». تراقب زوجها في ذهابه وإيابه، وتفتّش في جوّاله فتعرف أنّه على علاقة بسكرتيرته. تخاف أن تواجهه بالأمر حتى لا تتقوض حياتها وحياة أطفالها. تقول في نفسها: «سيملّ منها في يوم ما ويعود إليّ. كل الرجال يخونون، لكن الزوجة العاقلة هي التي تحافظ على بيتها وتنظر إلى الجهة الأخرى». هكذا علّمتها أمّها، لكن كرامتها المهدورة لم تتركها بسلام، فتصاعد الموقف شيئًا فشيئًا حتى انتهى بمقتل الزوج والسكرتيرة.

مرّ به رجلان يضحكان باستمتاع، فحدج أحدهما بنظرة نافذة: «لا تأمن للذين يضحكون بوجهك». بعد يومين انتشر خبر في الصحف حول عملية اختلاس في مستودع أدوية يعود للرجل عينه، والشرطة ما زالت تبحث عن المحاسب الذي فيما يبدو قد غادر البلاد. وبعد يومين يتصدر خبر آخر عناوين الصحف: انتحار صاحب مستودع أدوية بعد إعلان إفلاسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاح بأعلى صوته فسمعته المرأة الحامل التي كانت على الرصيف المقابل: «مات من مات وعاش من عاش». تعثّرت وهي ترقى الدّرجات أمام مدخل منزلها فسقطت ومات الجنين. ذاع صيته وصار الناس يخشون نبوءاته، ما عدا طلاب المدارس الذين كانوا يسخرون منه، ويسألونه حتّى يتنبأ بدرجاتهم في نهاية العام الدراسيّ، فيأخذه الغضب ويسبّهم ويلعن الدّاية التي بشّرتْ بهم.

كانت القشّة التي قسمت ظهر البعير عندما مرّ مسؤول بسيارته الفارهة وسمعه يقول: «الدّنيا يومان: يوم لك ويوم عليك». عندما وصل المسؤول إلى مكتبه، عرف أنّه أقيل من منصبه فأصابته نوبة قلبية حادّة وسقط ميتًا.

تنامى القلق العام من هذا الدرويش الذي يهدّد الأمن المجتمعي، فتنادى الناس وتجمّعوا للخلاص منه ومن نبوءاته المشؤومة. ربطوه إلى شجرة باسقة في ساحة السوق ورموا الأخشاب الجّافة عند قدمية ثم أشعلوا فيها النار. حاول أن يستعطفهم ليعفوا عنه، لأنّه لم يفعل شيئًا يستحقّ هذا المصير البائس. لكنّهم قابلوه بأقذع الشتائم، أشفق عليه طلاب المدرسة وحاولوا مساعدته وإخماد النار التي وصلت إلى أصابع قدميه، لكنّ الجماهير الغاضبة حالتْ دون ذلك وطردتهم من السّاحة. تعبّق الجو برائحة اللحم المحترق، وتصاعدتْ أعمدة الدخان التي لم تتوقف عن التّصاعد إلى يومنا هذا، وما زالت تلوّث الغيم الأبيض الذي كان يظلّل المدينة في يوم بعيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن المؤلف

مجدي دعيبس من مواليد عام ١٩٦٨، حاصل على بكالوريوس هندسة الاتصالات من جامعة مؤتة عام ١٩٩٠، وماجستير علوم وهندسة النانوتكنولوجي من جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية عام ٢٠٢٠. صدرت له الأعمال الآتية:

- رواية (الوزر المالح) عام ٢٠١٨ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وحصلت على جائزة كتارا للرواية العربية في دورتها الخامسة عام ٢٠١٩ عن فئة الروايات المنشورة، وتُرجمت إلى اللغة الإنجليزية.

- رواية (حكايات الدرج) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ٢٠١٩.

- مجموعة قصصية (بيادق الضالين) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بدعم من وزارة الثقافة عام ٢٠١٩ .

- رواية (أجراس القبّار) عن الآن ناشرون وموزعون عام ٢٠٢٠.

- مسرحية (الدهليز) عن دار أمجد للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى عام ٢٠٢٠.

- مجموعة قصصية (ليل طويل.. حياة قصيرة) عن الآن ناشرون وموزعون بدعم من وزارة الثقافة عام ٢٠٢٢.

- كتاب في السيرة بعنوان (مغامرون وراء الأطلسي) وصدر عن دار الخليج للنشر والتوزيع عام ٢٠٢٢.

- رواية (قلعة الدروز) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ٢٠٢٢.

وله أيضًا الأعمال المخطوطة الآتية:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مسرحية بعنوان (جمانة).

- رواية بعنوان (صرير النّدم)، وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة توفيق بكّار للرواية العربية في دورتها الرابعة.

- رواية بعنوان (السّيح).

---

(1) تروي حيثيات جريمة قتل سانتياغو نصار على يد الإخوة فيكاريو انتقاماً لشرف العائلة بعد أن أعيدت أخت القتلة إلى أهلها من قبل زوجها ليلة الزفاف عندما اكتشف انها ليست عذراء . عرف الجميع بنية الشقيقين لكنّ أحداً لم يستطع تنبيهه فقتلاه ظلماً في مشهد مؤلم بسكاكين كبيرة تستخدم لذبح الخنازير.

(2) قوس حجرية تعلو الأبواب والنوافذ في أسلوب البناء القديم.

(3) جون لويس بيركهارت، الرحالة السويسري المعروف. أثار اهتمام العالم بالمدينة الوردية بعد أن وصل إليها بالصدفة عام ١٨١٢.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner